

مجلة الثقافة الوطنية الديمقراطية

يوليو ٢٠٠٤ - العدد ٢٢٧

ردونسـون: المستشرق المحب .. وداعـاً

ثورة «ماو» الثقافية: اطلبوا الشعر ولو فى الصين

السينما الايرانية: مرارة.. قهر وشوق للحرية

مؤنس الرزاز: تراجيديا تلملم الشظايا

الشخصية العربية تقليدية .. حديثة

محمود إسماعيل/ كاميليا صبحى/ البرتو مورافيا

وحيد النقاش/ سميحة خريس/ طلعت الشايب

هاشم غرايبة/ عاطف أحمد/ سيف الرحبى



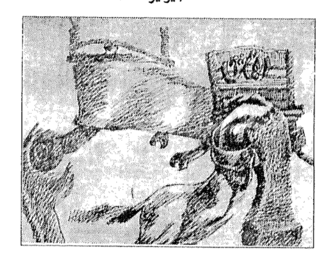
أدب ونقد

مجـــلة الثقافة الوطنية الديمقراطية

شهرية يصدرها حزب التجمع الوطني التقدمي الوحدوي

تأسـست عـام ١٩٨٤ / السنة الواحـدة والعشـرون

العدد ٢٢٧/ يوليو ٢٠٠٤

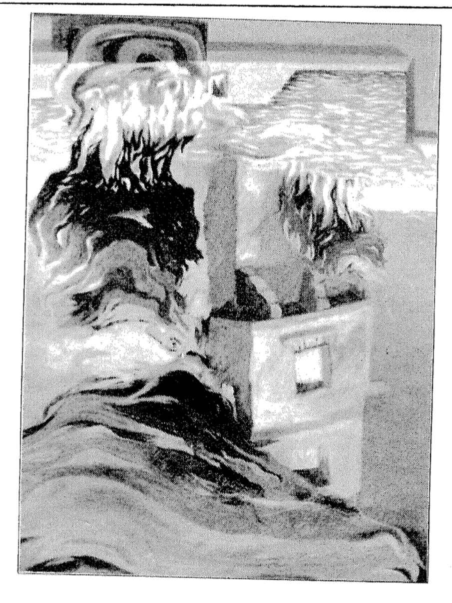


adabwanaqd@yahoo.com

موقع [أدب ونقد] على الانترنت: adabwanaqd.4t.com

المراسلات : مجلة (أدب ونقد) ١ شارع كريم الدولة / ميدان طلعت حرب / الأهالى
القاهرة / هاتف ٢٩/ ٥٧٩١٦٢٨ فاكس ٥٧٨٤٨٦٧

محتويات العدد



فنان العدد

-السيد القماش
-مواليد ١٩٥١ -بمدينة طنطا محافظة الغربية
-أستاذ التصوير الجدارى المساعد بكلية الفنون الجميلة-جامعة المنيا
-حصل على درجة دكتوراة الفلسفة فى الفنون الجميلة عن بحثه " مشاهر التجديد فى التصوير الجدارى عند جويا" ١٩٨٧.
-عمل رئيسا لقسم التربية الفنية بكلية المعلمين بـ أبها بالمملكة العربية السعودية عام ١٩٩٩.
-حصل على ٣٦ جائزة دولية ومحلية منها " جائزة الاستحقاق فى التصوير ١٩٨٦، ميدالية ترينالى بولندا ١٩٩١ ، الجائزة الأولى فى الحفر بينالى الاسكندرية ١٩٩٤، جائزة الشراع الذهبى بينالى الكويت ١٩٩٦.

أول الكتابة

فريدة النقاش

إن أحداً منا ، نحن وأنت لم يتخذ قرارا بأن يفعل ، فكل قراراتنا ردود أفعال لقرارات إتخذها لنا غيرنا بالوكالة عنا ، ودون الرجوع إلينا لأننا إستنمنا إلى التهميش واستمرأنا السكون والانقياد ، وترك كل منا حياته ليديرها له الآخرون كيفما شاءوا .."

هكذا يخاطب أحد المسئولين عن جماعة تسمى نفسها " جماعة مكافحة العجز والدنس " مواطنا بسيطا ماشي جنب الحيط يدعى " منصور عبد الرازق " .. وكما هو واضح فان معانى اسمه مبطنة بسخرية عميقة ، فليس هناك أى نصر فى حياة هذا الإنسان الصغير الذى يختاره الروائى " سعيد سالم " بطلا لعمله الجديد " الشيء الآخر " ، بل إنها الهزيمة الشاملة ويوسعنا أن نقرأ فى مفتتح الرسالة التى توجهها الجماعة الجديدة تشخيصا لحالة التبعية لقوى أخرى تتجسد فى حياة فرد فاقد الإرادة " لم يتخذ قراراً بأن يفعل" لأنه مهزوم مهمش ومنقاد يقرر له الآخرون أمور حياته ومصيره.

فما هى هذه القوى الأخرى التى تقودنا وتهمشنا وتسلبنا إرادتنا ، وتدفع بنا دفعا إلى العجز والدنس حتى تجد مجموعة من الناس لزاما عليها تأسيس جماعة لمكافحة هذين الدائين : العجز والدنس وقد فاض بها الكيل كما فاض بنا جميعا.

إختار الكاتب أن يمنح للفساد الذى تسلل حتى إلى الماء والهواء فى حياتنا معنى سحريا .. فهو الدنس الذى يلوث الأيدى والأخلاق والعقول .. وحين يشكل مع العجز هذا المركب الذى ينخر واقعنا كصدأ متراكم نجد أنفسنا مشلولين أو أشبه ، محاصرين بين ضعفين ، ضعف الحكم القائم وعجزه عن الخروج من الأزمة الشاملة التى تعيشها البلاد بكل مظاهرها السياسية والاقتصادية والثقافية والأخلاقية ، وضعف الحركة الوطنية الشعبية الطامحة لتغيير الوضع القائم بعد أن فقدت الثقة فى إمكانية الإصلاح وخدعتها طويلا دعاواه ، وعن طريق هذا التوازن بين الضعفين تنهال علينا مشاريع " لإصلاحنا " من الخارج.

أعرف أنكم سوف تنزعجون من ضمير الجمع ، هنا لأننا لسنا جميعا متساويين فى المسئولية عما حل بنا ، وإن كنت أجد أننا جميعا مسئولون بدرجات متفاوتة عماوصلنا إليه الذين سكتوا والذين قالوا فخار بيكسر بعضه وحتى الذين قاوموا ثم يئسوا .

نعم يتحمل نظام الحكم المسئولية الرئيسية باعتباره مالكا للسلطة والثروة ، يسن القوانين ويبث الدعايات الكاذبة عن عالم وردى متجانس بينما يدور إقتتال أهلى مخفى يمزق أحشاءنا تمزيقا.

ولكن المثقفين النقديين مسئولون أيضا لأنهم خدعوا خديعة كبرى حين اكتفوا بذلك الهامش المحدود للحريات الذى انتزعته حركة الشعب بجهد جهيد ، واستكانوا لفكرة تقول أن حرية التعبير يمكن أن تكون كلاما ، ثم فوجئوا بأن للكلام حدودا .. وأن الكلام يمكن أن يؤدى ببعضهم إلى السجون بينما المعتقلات مكتظة بآلاف من زهرة شباب الوطن. ويعرف الجميع هذه الحقيقة التى تبث الخوف فى القلوب وتجعل كل " منصور عبد الرازق " حين يسر لنفسه بها يمشى جنب الحيط .. وكل مثقف يحسد نفسه لأن بوسعه أن يقول كلاما بينما آخرون مرميون فى أقبية السجون فيحمد الله لأنه أفلت من هذا المصير ثم يجرى حساباته المعقدة حول حدود التعبير بالكلام متسائلا وهو محق ، ماجدوى الكلام باللسان ؟ هو يلجأ للنضال كما يسميه الدكتور محمود إسماعيل فى كتابه " المهمشون فى التاريخ الإسلامى" وهو فى مجال البحث عن إجابة ضمنية لهذا السؤال الشائك ، لماذا لايثور المصريون رغم أن مايجرى لهم الآن يمكن أن يشعل الحرائق ، ولماذا ندرت الثورات فى التاريخ المصرى قديمه ووسيطه وحديثه - برغم تعرض مصر أكثر من غيرها - لحكومات أجنبية ؟

وسوف يأتينا الرد عالا : إن مصر لم تعد منذ أكثر من نصف قرن خاضعة لحكومات أجنبية .. وحينها سوف يرد عاجلاً الباحث الكويتى وعالم الاجتماع " خلدون النقيب " قائلا عليكم أن تعرفوا أن هناك إستعماراً خارجيا واستعمارا داخليا .. والاستعمار الداخلى يعتبر مصر "إقطاعا خاصا " مثلما فعل أفراد البيت الأيوبى إبان حكم " صلاح الدين " الإقطاعى العسكرى الكردى " وعلى غرارهم سلك الولاة والقضاة والجباه . فهاهو أحدهم يعتبر الإمارة تجارة ، ومن ثم سرق الأموال " وخان فيما تولاه " وها هو أحد القضاة يحصل على " أموال جليلة" برغم قصر فترة ولايته بل إن أموال الجيوش والأوقاف والصدقات نهبت نهبا ، وأسلوب الاحتكار أرهق التجار وقضى على صغارهم ، وكانت الوظائف العامة تباع وتشترى ، أما عن البذل والرشاوى والبرطلة فحدث ولاحرج .."

وكأن الباحث يصف حالتنا الآن .. فماذا عن المثقفين فى ذلك العصر الوسيط ؟

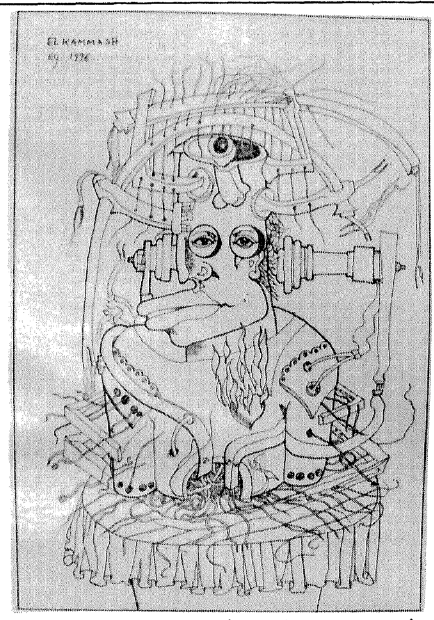
حث فقهاء السلطات العامة على طاعة الملك وذل الجانب وراجت أيديولوجيات " التخدير الدينى" ودورها السلبى حيث ساد الاعتقاد بأن " سلطان غشوم لافتنة ولاتدوم " أى التعويل على الزمن

باعتباره طوق النجاة وطريق الخلاص .. فهل يعول المصريون الآن على الزمن ؟

وقد كان فقهاء السلطان في كل زمان ومكان يقومون بأدوار مشابهة ، ولكن كان هناك ومايزال هؤلاء المثقفون النقديون الذين يراهنون على وعى الكادحين وقدرتهم على إحداث التغيير ، ويعرفون أكثر من غيرهم ، وحيث المعرفة مسئولية ودور . وقبل قرن من الزمان قالت المفكرة الماركسية "روزا لوكسمبورج " إذا إمتلك كل السكان المعرفة فربما لن يصمد النظام الرأسمالي أكثر من ٢٤ ساعة .. وقد أغرقت " روزا" المناضلة في التفاؤل ربما لأن وسائل الإعلام في زمانها لم تكن قد بلغت من القوة والجبروت مابلغته الآن وحيث تسيطر الولايات المتحدة الأمريكية وحدها على مايزيد على ٦٠٪ من الإعلام العالمي ، ويختلف شكل التبعية ومحتواها إذ يتفاعل الاستعماران الخارجي والداخلي ويتبادلان الأدوار.

وأكثر من أي وقت مضى يصبح العمل الجماعي ضرورة ، والمثقف الفرد الوحيد عاجزاً عن إحداث التأثير المطلوب ، ومدعواً طيلة الوقت كي يتواصل مع آخرين ويعملوا معا . وهنا سوف نجد أنفسنا أمام الحصاد المر لسياسات التبعية والطفيلية والفساد " والعجز والدنس " التي حطمت بشكل منهجي طويل المدى روح الملكية العامة والعمل الجماعي في سياق الإضعاف المنظم للدولة القومية وعوامل قوتها وتحولها إلى مجرد شرطي مدجج بأحدث الأسلحة الأمريكية لقمع الشعب ومحاصرة حركته وإرهابه بعد أن أدت سياسات السوق الحرة العدمية إلى إطلاق قانون الغابة حيث يأكل الكبير الصغير ويتصارع البشر كالحيوانات بعد أن جرى تحطيم منظماتهم أو تأميمها في مفارقة مع حالة الخصخصة التي تجرى على قدم وساق لكل ماهو عام ، وبعد أن تمت دون إبطاء إعادة توزيع الثروة القومية بين العمل ورأس المال لصالح الأخير ، فقد كانت عوائد العمل حتى سبعينيات القرن العشرين تمثل ٥٠٪ وعوائد رأس المال ٥٠٪ ، الآن تمثل عوائد العمل ٣٣٪ وعوائد رأس المال ٦٧٪ . وتتآكل الأجور الهزيلة يوميا أمام وحش التضخم والاستغلال الكثيف ، بل ويتآكل معنى العمل نفسه ويصبح مثارا للسخرية لأن النهب هو سيد الموقف ، والجباية هي شعار الدولة البوليسية التي لم تفقد استقلالها وحده أمام الهيمنة الأمريكية ولكنها فقدت أيضا هيبتها كممثلة لأمة عريقة وحضارة قديمة ، وأصبح رأس مال المصريين الرمزي يتآكل بدوره فيمشون " جنب الحيط أفرادا يائسين لا أمل لهم ولامستقبل لأبنائهم ولاضوءاً شحيحا في النفق المظلم الذي دفعهم إليه " العجز والدنس والخراب.

يسألني طبيبي كيف سنخرج مما نحن فيه ؟ ثم يضيف لقد قدمت أوراقي وأسرتي للهجرة إلى



كندا فرغم أننى أعيش فى مستوى لابأس به لا أجد بابا واحدا مفتوحا للخروج ولا للأمل.

وبعد أن تداولنا طويلا حول أوضاعنا ، وبعد أن سأل سؤالا يبدو ساذجا لماذا لايكتفى كل واحد من هؤلاء اللصوص بمليار جنيه فقط ، هل كان ضروريا أن يسرقوا كل شىء؟ وافقنى أننا لو هاجرنا جميعا .أو من استطاع منا .. لن يكون ذلك حلا ، وتواعدنا أن نبحث معا عن أمل يجمعنا ..

إنها الصورة القاتمة ـ الواقعية ـ لحالتنا فكيف إذن سنخرج .. نحن مطالبون جميعا بالإجابة.

المحررة



مكسيم رودنسون ... وداعا .. !!

د. محمود إسماعيل

أحسب أن هذا المقال المبتسر أعجز من أن يوفى « رودنسون» حقه ، لا من حيث كونه مفكرا ماركسيا أسهم – مع غيره - بجهد نظرى فى إثراء الفكر الماركسى وتطويره – تأسيسا على المضمون العام للماركسية نفسه - للماركسية من خلال دراسات معمقة فى حقل الاجتماعيات والإنسانيات ليواجه مشكلات مجتمعات متغيرة ، ويقدم الفكر الماركسى « طوق نجاة » للعالم النامى على وجه الخصوص ، سيما بعد وقوع متغيرات دولية خطيرة على الصعيد العالمى خلال العقد الأخير.

أحسب أيضا أن هذه السطور التى يدبجها مؤرخ عربى ماركسى عاجزة عن تعداد مواقف رودنسون – المتسقة مع فكره العلمى و« الهيومانى» – إزاء قضايا ومشكلات العالم العربى المعاصر ، تلك المواقف المنحازة – عن علم ودراية وأمانة علمية - للعالم العربى فى مواجهة الهجمة الإمبريالية الصهيونية التى تستهدف العرب والمسلمين عقيدة وثقافة وهوية

حضارية، إلى جانب المقاصد الاقتصادية والسياسية والاستراتيجية-بطبيعة الحال.

أحسب – أخيرا – أن القارئ العادى – وحتى المثقف العربى ستأخذه الدهشة من مجرد تقديم هذه السطور تأبينا لرحيل مفكر « شبه مجهول» بالنسبة للقراء . وحتى الذين يعرفون عنه شيئا إنما وقفوا عليه من خلال حملة ضارية على كتابه « محمد» (ص) ، أضرمت إدارة « الجامعة الأمريكية » بالقاهرة ، نيرانها، وأججتها تشنجات « المعممين» من مشايخ الأزهر. وقد يكون موقف إدارة الجامعة من المصادرة على تدريس الكتاب بها مبررا ، لكون مؤلفه ماركسياً يناهض بفكره ومواقفه المعلنة سياسات الغرب ، خصوصا الولايات المتحدة إزاء العالم العربى . أما مايثير الدهشة حقا ، فهو موقف الأزهر غير المبرر بحجج أو قرائن اللهم إلا أن مؤلف الكتاب « يهودي» يشوه صورة نبى الإسلام !! ولو اطلعوا على الكتاب حقا ، لأدركوا خطأ هذا الزعم ، وهو ماسنثبته بعد فى ثنايا المقال.

ولمن يجهل « مكسيم رودنسون» نقول إنه مفكر وعالم اجتماع ومؤرخ فرنسى ولد عام ١٩١٥ ، وتوفى عام ٢٠٠٤ . ينتمى إلى أسرة يهودية روسية رقيقة الحال، فقد عمل « ساعيا» بإحدى المكاتب ونشأ نشأة عصامية ، فنهل من علوم العصر الاجتماعية والإنسانية بمجهوده الخاص ، الأمر الذى أهله للعمل بالأكاديمية الوطنية بباريس عام ١٩٣٧ بعد اجتياز امتحان شاق . ثم انضم لعضوية الحزب الشيوعى الفرنسى وأصبح من أشهر منظريه المجددين فى مجال « الماركسيولوجى» . عاش فى لبنان قرابة سبعة أعوام درس إبانها اللغة العربية وأجادها فضلا عن بعض اللغات السامية الأخرى. وزار القاهرة وبعض العواصم العربية الأخرى ، حيث تعمق فى الدراسات الإسلامية ، الأمر الذى أهله لتدريسها بجامعة السوربون . وقدر له الإشراف على الكثير من الرسائل الجامعية فى هذا الحقل لبعض الدارسين العرب ، ومن أشهرهم المفكر المغربى « عبد الله العروى» . كما كان منزله – بمكتبته الزاخرة – موئلا للدارسين والمثقفين العرب المعاصرين ، ممن أدركوا قيمة فكره وعلمه كمتخصص فى الدراسات العربية الإسلامية .

أما عن أهم مؤلفاته فى هذا الصدد ، فمنها كتابه « محمد » الذى قدم فيه « سيرة» علمية موضوعية كشفت عن مكانته « كرجل دولة » من الطراز الأول ، وأبانت عن « عبقرية» فذة أفضت إلى ثورة إجتماعية إنسانية غيرت وجه التاريخ . وفى هذا الصدد عول على « المنهج المادى الجدلى التاريخى» ، وبفضله وضع حدا للروايات المنقبية والأسطورية والتيلوجية والخرافية الموروثة عن « ابن إسحق».

بفضله أيضا ، فند الأحكام الاستشراقية الكلاسيكية التى حاولت أن تنال من شخص الرسول (ص) والإسلام فى آن .

وفى كتابه « الماركسية فى العالم الإسلامى» ، قدم « بانوراما» تاريخية عن التاريخ الإسلامى تعالج الجوانب السياسية والاقتصادية والاجتماعية والفكرية وفق رؤية مادية تاريخية . والأهم ما انطوى عليه الكتاب من الكشف عن غاية مؤلفه ، وهى إثبات أن « الماركسية » لاتتعارض مع الإسلام ، فالعدالة الاجتماعية غاية مشتركة للإسلام والماركسية .. لينتهى إلى أن نهضة العالم الإسلامى وتحريره من الإمبريالية والتبعية الثقافية منوطة بالربط بين مبادئ الإسلام العامة وبين الصياغة العلمية الماركسية لهذه المبادئ ، وهو أمر منوط باجتهادات فقهاء المسلمين وترشيد الماركسيين العرب المهمومين أساسا بالجدل النظرى والسفسطات الأيديولوجية .

وينطوى كتاب « العرب» على تأريخ « بانوراما» أيضا للعالم العربى المعاصر ، أفاد فى صياغته من خبراته العملية وتجاربه العيانية ، وأثبت أن التاريخ العربى الوسيط والحديث جزء من تاريخ البشرية ، ومن ثم يخضع للقوانين العامة المحركة للتاريخ ويتميز الإنجاز بدحض أحكام الاستشراق الكلاسيكى عن التكوين " الإثنى" و" الطائفى" و" النسمى" – الروحى– الذى يحكم على حاضر ومستقبل العالم العربى بالعجز والتخلف . وعلى العكس يرى فى الإسلام ثورة تاريخية وحضارية أثبتت أخطاء مؤرخى الغرب عن « المعجزة اليونانية » ونظرية « مركزية الحضارة».

ويعد كتابه عن « الإسلام والرأسمالية» أهم ماكتبه فى حقل الإسلاميات لعدة أسباب ، نوجزها فيما يلى:

أولا : دحض الفكر الاستشراقى الذى يحمل الإسلام مسئولية تخلف العالم الإسلامى قديما وحديثا ، ونفى عنه الحكم الجائر بأنه المسئول الأول عن عدم إنجاز « ثورة رأسماليوية » قديما أو حديثا . وأثبت أنه فى ظل الإسلام حدثت ما أسماه « ثورة رأسمالية » – أى رأسمالية غير مكتملة – كانت من وراء ازدهار الحضارة الإسلامية التى مثلت – فى نظره – حضارة العالم فى العصور الوسطى.

ثانيا : اعترف « رودنسون» بخصوصية – إيجابية – للإسلام تميزه عن سائر الديانات ، من حيث كونه « عقيدة وشريعة » فى آن . ويرى فى حقيقة عدم نص الإسلام عن شكل معين للسلطة ونمط محدد للاقتصاد ، توكيداً على « جدلية» و« واقعية » ووعيه بقوانين « الحركة» و«

الصيرورة» المفضية إلى « التغيير » المستمر . بينما طرح مبادئ عامة يمكن على هديها مواكبة ومواجهة مشكلات التغيير والتطور.

ثالثا: استهداف المؤلف الإفادة من هذه الحقائق الصادعة لتحقيق غاية – أو ما أسماه «خدمة» – مفادها عقد وئام بين المبادئ الإسلامية ، وبين صياغتها العلمية ممثلة فى «الماركسية» ويمكن استثمارها فى مشروع نهضوى عربى معاصر.

والأخطر من ذلك والأهم ، هو استشرافه حقيقة مايجرى – الآن – من فرض هذا المشروع من « الخارج »، مفيدا فى هذا الاستشراف المستقبلى من « المادية التاريخية » التى تؤهل المؤرخ النابه إلى « التاريخانية»، أى استشراف المستقبل.

ولمكسيم رودنسون دراسات أخرى فى التاريخ الاجتماعى الإسلامى ، من أطرفها كتابه المعنون « المطبخ العربى » الذى يشى بأهمية التوجه لدراسة « مفردات» التاريخ الاقتصادى- الاجتماعى الذى تبنته « مدرسة الحوليات» ، انطلاقا من فهم ووعى بالمبادئ العامة للمادية التاريخية ، إلى جانب محاولة تطويع قوانينها فى مجالات البحث التطبيقى « الأمبريقى» .

أما عن دراسته الهامة عن « الغرب والإسلام » ، فهى دراسة جد هامة من حيث إثباتها أن نظرة الغرب إلى الإسلام والمسلمين إرتبطت بطبيعة « عقلية» الغرب ، التى تشكلت بدورها نتيجة التطور السوسيو- تاريخى ، ومن ثم السوسيو – ثقافى لتاريخ وحضارة الغرب . وكشف عن حقيقة ارتباط نظرة العداء من قبل الغرب بالرؤية الكنسية « اللاهوتية» التى أفرزها الإقطاع « الفيودالى» ، بينما أسهمت الثورة البورجوازية الأوروبية فى تغيير تلك النظرة نتيجة تطور« العقل الليبرالى» الغربى ، فأصبحت نظرة تقدير – بل إعجاب – مالبثت أن تحولت مرة أخرى إلى العداء والتحقير كنتيجة لحركة الاستعمار الأوروبى الذى أفرز « عقلية الاستشراق».

ولمكسيم رودنسون دراسات أخرى كثيرة عن تاريخ وحضارة العالم العربى المعاصر ، محاولا الربط بين الماضى والحاضر . مستهدفا من ذلك – فى التحليل الأخير – استشراف مستقبل العالم العربى ، معولا على الإفادة من « التراث» وربطه بالماركسية كطوق نجاة للخلاص من سطوة الإمبريالية.

نستخلص مما سبق أن كتابات « رودنسون» تدور حول محاور ثلاثة مترابطة ومتداخلة هى ، الغرب ، الإسلام ، الماركسية . إذ يرى أن الغرب فى سياسته إزاء العرب والمسلمين « متآمر» برغم دعاويه عن الحرية والعلمانية والديمقراطية ، وأنه من أجل مصالحه الاستراتيجية يحرص على استمرار « تبعية» و« ذيلية» العرب ثقافيا للثقافة الغربية.

أما الماركسية ، فقد أسهم فى تجديدها - من داخلها - حتى تظل موئلا لخلاص الإنسانية.

وفى هذا الصدد ، يرى أن برغم انهيار « الكتلة الاشتراكية » فإن الماركسية تظل مكتسبا علميا للبشرية ، وأن معارفها « علم إنسانى» أعدته حقائق التاريخ الاجتماعى بعيدا عن الأيديولوجيا . " فالديالكتيك " - فى نظره - قادر على استيعاب المتغيرات والمستجدات كافة .

فى هذا الصدد أيضا ، يفيد من دراساته كعالم اجتماع فى التمييز بين الماركسية كفلسفة وكأيديولوجيا وكعلم ، ويؤكد أن " الماركسيولوجى" غدا " ثابتا ومستقرا " ، وهو أمر لاينكره عليها أكثر خصومها . ويذهب إلى أن هؤلاء الخصوم يأخذون بنظرياتها بوعى أو بدونه. وفى الحالين معا تأكيد على « أنه مايزال ذا معنى أن يعلن المرء أنه ماركسى على صعيد الدراسات العلمية الاجتماعية .. لأن الكثير من إنجازات الماركسيين في هذا المجال قد ضمت إلى العلم وأضبحت جزءاً منه».

والسؤال : لماذا لم يحقق المفكرون العرب - وحتى الماركسيون منهم - بفكر « رودنسون» ، بينما يهللون لـ « سخافات» ، « جارودى » ؟ إذ نعلم أن الأوساط العربية الثقافية - وحتى الأزهر - يهللون لجارودى إلى حد الزعم بأنه « اعتنق الإسلام » ، وهو مالم يحدث . فما حدث هو أنه « يتاجر» بالإسلام بغية منافع خاصة ، وسفرياته إلى دول « البترو - دولار » لاتخلو من مغزى . وجوهر كتاباته تؤكد هذا الجانب التفعى (وقد سبق لنا تعرية هذا الجانب فى دراسة بعنوان :« جارودى والإسلام والاشتراكية » ، نشرت فى مجلة « الفكر المعاصر» ، عام ١٩٧٠).

هذا فضلا عن تخليه عن الماركسية ، بل إنه فصل من الحزب الشيوعى الفرنسى باعتباره « ملفقا» .

بينما نجد فى تاريخ حياة « رودنسون»ماينم عن موقف أخلاقى ، فلم يتكسب بفكره - ولا بمواقفه - من العرب أو غير العرب ، وقد أعلن مرارا أن « دفاعاته » عن الإسلام تاريخا وحضارة ينبع من موقف علمى وأخلاقى ليس إلا . ومقدمات كتبه تلح على أنه « مواطن فرنسى» فى التحليل الآخر. ويعلم ذلك تلامذته من الدارسين العرب أو من المثقفين العرب الذين عاشروه وخبروا منطلقات فكره ومواقفه فى مناصرة الحق العربى ، إلى حد تهديده مرارا بإشهار سلاح « معاداة السامية » !!!

أما عن كونه يهودياً ، فقد أعلن مرارا أيضا أنه « علمانى» معاد للصهيونية ، إلى حد أنه رفض « الختان » على الطريقة اليهودية !!

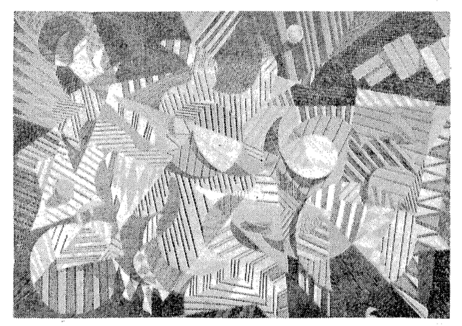
فلماذا هذا الموقف « الساكت » من المثقفين العرب . وبعضهم يعلم أن « رودنسون» ظل طوال عمره مدافعا عن قضايا العرب بنزاهة وموضوعية عالم الاجتماع السياسى؟

لقد ذكر « رودنسون» فى مقدمة كتابه « الإسلام والرأسمالية » أن أفكاره ومواقفه إزاء القضايا العربية ليست من « باب النصيحة» ، وأنها « ليست ملزمة لأحد » ، بل ربما صاحبها بعض المفكرين العرب ، حتى الماركسيين « العرب المراهقون» الذين قد يجدون فى فكره ورؤيته للماركسية شيئا من الانحراف. أما غير الماركسيين ، فلسوف يعتبرون كتاباته – خصوصا عن الرسول (ص) – غير مقبوله ، نظرا لرفضه الخرافات والأساطير التى حيكت حول شخصه.

ومع ذلك ، ظل « رودنسون» مخلصا لفكره ومواقفه ، إذ ظل حتى أواخر أيامه مدافعا عن الحقوق العربية المهدرة ومعارضا منددا بالسياسات الأمريكية والإسرائيلية . من هذه المواقف أنه بعد انتكاسة ١٩٦٧ كون لجنة مع مجموعة من المفكرين الفرنسيين للدفاع عن الحق العربى ، أصدرت نشرة بتبصير الشعب الفرنسى بهذه الحقوق ، لكنها توقفت تحت تأثير النفوذ الصهيونى . كما نشر عدة مقالات فى صحيفة « العصور الحديثة» بهدف فضح الصهيونية ودعاويها العنصرية والدينية المتحجرة، دون أن يعبأ بالتهديدات باغتياله . كما كتب مقالات أخرى بعنوان « إسرائيل واقع استعمارى » فضح فيه المشروعين الاستعماريين الغربى والإسرائيلى ، معتبرا إسرائيل « كلب حراسة» لأمريكا . بل أصدر كتابا بعنوان « شعب يهودى ومشكلة يهودية » عام ١٩٨١ فند فيه دعاوى الصهيونية واعتبرها نوعا من « الهذيان الأيديولوجى» وكان هذا الكتاب تتمة لكتاب سابق عنوانه « إسر ائيل والرفض العربى » ، دافع فيه بالقرائن التاريخية على الحقوق العربية المهدرة ، والتى سكت عنها « شيوخ العرب» الموالين للغرب . وقبل ذلك شارك فى ندوة بالقاهرة عام ١٩٦٤ عقدها « إتحاد طلبة فلسطين» . كما اشترك مع « جاك بيرك» ، فى تشكيل لجنة تدافع عن الحقوق الفلسطينية ، رافضا أن تكون تحت رعاية أى نظام عربى حاكم.

كانت مواقفه تلك – وغيرها كثير – تنطلق من كونه عالم اجتماع سياسياً دارساً لجذور السياسة ومحيطا بدهاليز لعبتها ، وكمفكر إنسانى « ماركسى» يرى فى الماركسية خلاصا للبشرية من « جبروت» الإمبريالية.

أما عن صلاته بالإنتليجنسيا العربية ، فقد توخى منها ترشيد تلك النخبة وحثها على ربط ماضيها العريق بالحاضر ، بهدف الخروج من دائرة التخلف والتبعية إلى آفاق التقدم والاستقلال بمعناه الشامل ، مبديا فى ذلك من التفاؤل » الذى عز على المفكرين العرب



المعاصرين .

وفى هذا الصدد لم يتقاعس عن نقد تلك النخبة بتياراتها الأصولية المنغلقة واليسارية المراهقة.

واستهدف من إنجازاته فى حقل التراث العربى الإسلامى تحقيق تصحيح الرؤية الغربية إزاء الإسلام والمسلمين ، لكونها مؤسسة على معارف فجة شوهاء ، ونزعات عنصرية لا إنسانية ، ومصالح وأطماع آنية ومستقبلية.

مع ذلك كله يأبى العقل العربى المعاصر إلا أن « يسكت» عما قدمه « مكسيم رودنسون» من جهود ، فى ذات الوقت الذى تقام فيه الاحتفالات الصاخبة لكتاب رأسماليين من الدرجة الثالثة تحت دعاوى العصرنة والحداثة.

وإذا كان لذلك من دلالة ـ فيما نرى – أن " الشخصانية » العربية مبتلاة بأمراض « سيكولوجية » معقدة ، أضعفها « الشيزوفرينيا» وأخطرها « السادية» إزاء الأصدقاء و« المازوخية» إزاء الأعداء .

تحية إلى « مكسيم رودنسون» حين حياته ، ويوم وفاته ، ويوم يبعث حيا .

وعزائى فيه أننى كنت ضمن ثلة معدودة من المؤرخين والمفكرين العرب الذين أجلوه وعرفوا قدره ، وهو ماسجلته فى مواضع عدة فى طوايا مشروعنا « سوسيولوجيا الفكر الإسلامى» ، بعد أن أفدت من منهجه ومن رؤيته فى إنجاز هذا المشروع الذى أهديه إلى روحه يوم رحيله.

تحيـة

ماكسيم رودينسن وآليات التلقى والتفاعل

د. كاميليا صبحى

توفي يوم الأحد ٢٣ مايو عام ٢٠٠٤عن عمر يناهز الـ ٨٩ عاماً ماكسيم رودينسن MAXIM RODINSON المستشرق الفرنسى الميلاد والنشأة الروسى / البولندى الأصل ، اليهودى بحكم الانتساب العائلى ، الماركسى بحكم الانتساب الفكرى والأيديولوجى ، والذى طالما كتب عن العرب والإسلام من واقع تخصصه العلمى وإجادته للغة العربية والعبرية والتركية والأثيوبية القديمة إلى جانب الفرنسية ، لغة كتابته.

ولد رودينسن فى باريس فى ٢٦ يناير عام ١٩١٥ ، وحصل على الدكتوراه فى الآداب ، ثم على شهادة من المدرسة الوطنية للغات الشرقية الحية والمدرسة العلمية العليا . وتولى العديد من المناصب العلمية فى كل من سوريا ولبنان فى المعاهد التابعة للحكومة الفرنسية هناك . كذلك عين مديراً للدراسات فى المدرسة العلمية للدراسات العليا بقسم العلوم التاريخية واللغوية ، ثم محاضراً فى قسم العلوم الاقتصادية والاجتماعية ، وقد نال العديد من الأوسمة والجوائز من الجهات العلمية الفرنسية والأوربية ، ولرودينسن مؤلفات عديدة ،

من بينها : كتاب " محمد " الصادر عام ١٩٦١ الذى أثيرت بشأنه ضجة فى مصر قبل عدة سنوات ، وكتاب " الإسلام والرأسمالية " ، و"جاذبية الإسلام " ، و" إسرائيل والرفض العربى" ، إضافة إلى العديد من الدراسات الخاصة بالتاريخ الاقتصادى للعالم الإسلامى.

وعلى الرغم من أن رودينسن ولد لأب روسى يهودى وأم بولندية هاجرا إلى باريس وتوفيا فى معسكر أوشويتز النازى إلا أنه اتخذ موقفاً نقدياً من الصهيونية ولم يتردد فى وصفها فى كتابه " إسرائيل والرفض العربى " بأنها " فيروس فى الجسد اليهودى" أما عن إسرائيل ، فقد كتب فى مقال له غداة حرب ٦٧ تحت عنوان " إسرائيل واقع استعمارى ؟" فى مجلة " لى طون موديرن" LES TEMPS MODERNES مؤكداً واقع إسرائيل الاستعمارى الظالم بالنسبة للفلسطينيين ، ولكنه مع هذا رأى أن إلقاء إسرائيل فى البحر لن يكون إلا مظلمة جديدة تضاف لما هو قائم . فإسرائيل موجودة بالفعل ، ولابد الآن من دولة فلسطينية.

انضم رودينسن إلى الحزب الشيوعى الفرنسى عام ١٩٣٧ لأسباب وصفها بأنها أخلاقية . ولكنه استبعد من الحزب عام ١٩٥٨ على أن يكون له الحق فى العودة إليه بناء على طلبه ، ولكنه لم يفعل . وكتب بعدها بعدة أعوام يقول :" حينما ندخل صراعاً خاصاً فإننا نترك أنفسنا ننقاد لمنطق هذا الصراع ، وحينما ننضم إلى تنظيم فإننا ننزلق إلى منطقه . وكلما زادت الحرب والمعارضة التى يتعرض لها هذا التنظيم زاد انزلاقنا ". ولكن انفصال ماكسيم رودينسن عن الحزب الشيوعى لم يحل دون وفائه حتى النهاية لفكر ماركس حتى أن قراءاته لحياة محمد وللإسلام وصفت بأنها قراءة ماركسية.

رأى البعض أن رودينسن يتحدث عن المسلمين أكثر مما يتحدث عن الإسلام ، وربما أراد رودينسن بهذا ـ وهو المؤرخ والمحلل الاجتماعى ـ لفت الأنظار إلى أن الغرب يواجه مجتمعات وليس نصاً وتفسيراته . أى أن سؤاله عن الإسلام لاينطلق من تأويل للنص بقدر ما يركز على تلقى هذا النص لذلك عد رودينسن تصور صامويل هانتنجتون لصدام الحضارات تصوراً مختزلاً للغاية يحصر واقعاً متسعاً ومتعدد الجوانب فى نقطة واحدة ، حتى أنه لايحيط بشئ فى النهاية من فرط محدودية رؤيته.

أما عن رؤيته هو الخاصة بشأن الصراع بين الشرق والغرب فقد عبر عنها عام ١٩٨٢ فى حديث أدلى به لجريدة لوموند الفرنسية قائلا : " منذ ١٤ قرن والغرب منبهر بالإسلام بمعنى ما ، لأن هذا الشرق ظل طويلا غريمه ومنافسه بل وعدوه وفى أغلب الأحيان وظل الشرق منافساً لأوروبا المسيحية لأنه انتزع منها سيطرتها على مناطق كثيرة من العالم ".

ثم كان له حديث مطول مع مجلة لوبوان le point الفرنسية فى أعقاب أحداث الحادى عشر من سبتمبر أكد فيه أن الصراع بين الشرق والغرب هو صراع دينى فى المقام الأول ، وأنه قديم قدم ظهور الإسلام الذى اعتبرته المسيحية فى ذلك الحين ادعاء أى أن الصراع ليس صراعا قوميا أو حضاريا كما يراه البعض . والغرب بالنسبة للمسلمين عبارة عن أناس يقولون أفظع الأشياء عن النبى محمد وعن الإسلام ، لذا وجب التصدى له بالقول أحياناً وبالسلاح أحياناً أخرى ، وهذا يفسر ظاهرة الإرهاب . كما أن لهذا الكره بعده الوطنى ، فمحاولة الغرب فرض قيمه على المسلمين تثير مخاوفهم ، وللتفاوت الكبير فى مستوى التقدم ودرجة الرخاء دور فى إزكاء مشاعر الكراهية والخوف التى بدأت بين الشرق والغرب - كما يرى رودينسن - منذ القرن السابع الميلادى ، وإن لم ينتبه المسلمون إلى هذا . لقد كان المسلمون سباقين إلى غزو أوربا وفتحها ، وكانت لهم أطماع سيطرة وهيمنة ، وكانت معظم الدول الإسلامية مسيحية فى ذلك الحين ، وظل المسلمون لفترة طويلة الأقوى والأغنى والأكثر تحضراً ، ثم انقلبت الموازين بمرور الأيام ، واستطاع الغرب أن يفرض سيطرته بالقوة من ناحية وبالفكر والتجارة من ناحية أخرى ، بدأت هذه المرحلة مابين القرنين الرابع عشر والخامس عشر ، وتحققت للغرب الغلبة بالفعل فى القرن التاسع عشر مع التقدم التكنولوجى الكاسح وتتدافع القذائف والمدافع الأوربية بشكل متسارع.

وعن تأثير الإسلام البالغ على المسلمين يقول رودينسن إن الإسلام قائم على مبادئ بسيطة ومقنعة : إله واحد ينظم كل شئ فى العالم ، وشهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله تكفى لكى تصبح مسلماً ، والعادة فى الإسلام هى الختان ، وإن كان ليس شرطاً إلزامياً ولعل سبب عدم اعتناق جنود نابليون الإسلام هو جزع العلماء المسلمين من فكرة هذا الدخول الحاشد فى الدين الإسلامى مما جعلهم يفرضون شرطين : الختان وتحريم الخمر ، وكان هذا الشرط الأخير غير مقبول ، لهذا فإن الفرنسيين - طبقا لرودينسن - مسيحيون وليسوا مسلمين.

كذلك يرى رودينسن أن عدم قدرة المسلمين على إعطاء صورة جيدة لأنفسهم فى الغرب ربما يرجع إلى أنهم لم يتمكنوا من فهم الآليات التى تحرك الرأى العام الأوربى ، ولهذا فهم دائما يزلون فى حديثهم . والمشكلة فى تقديره هى مشكلة جهل وعدم فهم : عدم فهم المسلمين للمسيحيين والعكس بالعكس.

فهل فهم رودينسن للإسلام والمسلمين صدم مشاعرهم الدينية ؟ لقد رأت أقلام غربية فى كتابه عن السيرة الذاتية لمحمد " ص "مرجعاً نقدياً أساسياً يضع النبى فى سياقه الاجتماعى



والسياسى والثقافى مما يتيح قراءة اجتماعية لحياته " دون أن يصدم هذا عقيدة المسلمين ".
ومع هذا ، فإن كتابه الموجه للقارئ الغربى فى المقام الأول والذى يخاطب عقليته التى لن تضفى القدسية ذاتها على شخصية الرسول « ص » أثار ردود فعل غاضبة وصادمة لـ " عقيدة المسلمين " ، حتى أن وضعه ضمن مقررات الجامعة الأمريكية قبل سنوات أحدث ضجة مدوية لعل هذه المقتطفات المترجمة من الكتاب تفسر دوافعها.

لم تكن النوايا السيئة بالضرورة وراء كل هذا ، ولكنها آليات التلقى والتفاعل سابقة التجهيز ، والتى ربما آن الأوان لها أن تتغير .. من الجانبين .

فقرات من كتاب
محمد
لماكسيم رودينسن

ترجمة: كاميليا صبحى

لا أحد يعلم على وجه اليقين متى ولد محمد الذى أصبح فيما بعد نبى الله. ساد اعتقاد أنه ولد فى عهد كسرى أنوشروان، أى قبل عام ٥٧٩ م ، وهذا أقرب إلى الواقع ، ويقال عنه عام الفيل، ذلك العام الذى ألحقت فيه طيور السماء الهزيمة بجيش أبرها أمام مكة ، وهذا قطعا غير صحيح. أما التاريخ النهائى المبنى على حسابات غير مؤكدة على الإطلاق فيذهب إلى انه ولد ما بين عامى ٥٦٧ و ٥٧٣ . ويرجح غالبا أنه ولد عام ٥٧١.

( )[1] يقال عن (عبد الله) والد محمد أنه كان شديد الحسن. ورغبة من أبيه فى التحالف مع بنى زُهرة ، فقد أراد مصاهرتهم. فطلب الصبية أمينة بنت وهب لابنه ، وتخير لنفسه ابنة عمها هالة بنت وهيب المنتمية لنفس العشيرة.

وكما هى عادة العرب ، ظلت أمينة على ما يبدو بين أهل عشيرتها، يأتيها عبد الله بين الحين والآخر. ورزقا بمحمد ، أول وآخر طفل لهما. وتجدر الإشارة إلى أحد الروايات الشائعة

[1] - هذه الإشارة تعنى تركنا جزء من النص وانتقالنا إلى فقرة لاحقة (المترجمة)

عن ميلاد محمد، وان افتقدت أية قيمة تاريخية بالطبع، وهى حكاية تتناقض بشكل قاطع مع حرص المسيحية على إظهار ميلاد المسيح – بقدر الإمكان – خارج إطار أية علاقة جنسية.

" أتى عبد الله امرأة أخرى له – وقد فرغ لتوه من العمل فى الفخار على أرض يملكها – ومازال يحمل على يديه آثار الطين. وبدأ يراودها فردته بسبب ما علق به . فخرج من عندها وأغتسل وتوجه إلى أمينة. وعاود المرور بالقرب من تلك المرأة فنادته، ولكنه ردها ولم يلبى ومضى إلى أمينة ودخل عليها وأتاها. يومها ، حملت بمحمد عليه الصلاة والسلام. وأثناء عودته ، سأل المرأة الأخرى :أمازلتِ ترغبين ؟ فردت : كلا ! حملت فى المرة الأولى نورا بين عينيك وناديتك فأبيت ، ثم أتيت أمينة فخلعت عنك هذا الضياء. "

توفى عبد الله وامرأته حامل – أو بعد وضعها طفلها بقليل – فى رحلة عودته من غزة ، بينما كان يزور المدينة لقضاء حاجة. ولم يخلف لزوجته سوى أشياء قليلة : أمة وخمسة من الإبل وبعض الأغنام. قامت أمينة على رعاية طفلها ، بيد أن الموت عاجلها ولم يتخطى وليدها السادسة من عمره بعد .

معلوماتنا عن طفولة محمد غير مؤكدة. ومع الوقت شغلت الأساطير هذا الفراغ. وكلما تباعد الزمان ، كلما زادت الروايات جمالا ومثالية . بل إن أقدم المعلومات – على اقتضابها غير موثوق بها. فحينما أصبح الإسلام دين دولة قوية، تبدت الحاجة لوجود قواعد منظمة للحياة الاجتماعية. وبطبيعة الحال ، تباينت الآراء والمصالح . كما ارتبطت بعض الأحزاب السياسية بآل بيت النبى أو بصحابته. فضلا عن رغبة البعض الاستزادة من حياة محمد بدافع الفضول أو التقوى، أو من باب الاهتمام التاريخي. فى ذلك الحين ، كانت الرواية مهنة . وكان الرواة يوردون أحاديث تشبع هذا الفضول أو هذه التقوى أو هذه الحاجة التنظيمية، لا سيما وان فعال النبى عدت نموذجا يحتذى به . فان تصرف فى شأن من الشؤون على نحو ما وجب على أنصاره الاقتداء بما فعل ، سواء تعلق الأمر بمسائل على درجة كبيرة من الأهمية مثل القواعد المنظمة للميراث (وقد فرضها الله ذاته فى القرآن) ، أو كانت مرتبطة بأبسط السلوكيات اليومية مثل آداب الطعام .

كان على الرواة شأنهم فى هذا شأن مؤرخينا – ذكر مصادرهم التى كانت فى مجملها شفاهية. فكان يروى عن فلان نقلا عن آخر وهكذا حتى أحد معاصرى الرسول ممن شاهدوه يتصرف فى شأن ما على هذا النحو، أو سمعوه يتفوه بهذا الحديث. وبطبيعة الحال ، سهل على البعض اختلاق حديث يدعم وجهة نظره أو وجهة نظر حزبه. ولم يخفى هذا على كبار كتاب التاريخ والفقهاء العرب، فحاولوا حذف الأحاديث غير الصحيحة خاصة إذا استحال أن يتناقلها هؤلاء الرواة. ولكنهم لم يصلوا إلى حلول قاطعة فى هذا الشأن . ولهذا نجد فى بعض الأحيان أحاديث متناقضة بشأن موضوع من الموضوعات. وعلى القارئ أن يقرر أيهم أصدق "والله أعلم" كما يقولون فى كثير من الأحيان .

( ) ووددنا لو أن لدينا معلومات أوفر عن نشأة محمد وتكوينه ، نظرا للأهمية التاريخية الكبرى لمثل هذه المعلومات. وطبقا للعقيدة الإسلامية ، انقطع محمد عن أية طقوس وثنية مما ساد فى بلدته . غير أن هذا الأمر يبدو مستبعدا.

فثمة مؤشرات قاطعة تدل على انه مارس فى حياته السابقة على الإسلام ديانة آباءه. ويقال أيضا انه ضحى بأحد الأغنام " للعُـزة " شأنه فى هذا شأن الجميع. وهناك رواية أخرى غير شائعة تقول انه قدم إلى أحد الموحدين لحم القرابين المنوح للآلهة ولكنه أبى وعاتبه.

( ) ويرجح أن محمد تعلم القراءة والكتابة على الرغم من تأويل خاطئ لكلمة وردت فى القرآن. ولكننا على أية حال نجهل مدى عمق ثقافته فيما عدا بعض المؤشرات النادرة غير الموثوق فى صحتها التى عرفناها خلال حياته .

( ) وفيما يبدو، فقد طالت حياة العزوبية بمحمد أكثر مما كان شائعا فى ذلك الحين. ولابد أن فقره كان وراء هذا .

( ) وما لبثت الفرصة أن واتته بعد حين. ودون الخوض فى المبالغات التى جعلت منه نموذجا للكمال الجسدى والعقلى والأخلاقى ، فان خصاله التى تبدت فيما بعد كانت كافية لتدلنا على مدى إيجابية الانطباع الذى كان يتركه حوله. فقد لفت إليه الأنظار بذكائه وهدوءه ورصانته وتوازن سلوكياته، وأسلوبه فى التعامل مع الآخرين. وهذا – لا شك – ما جعل امرأة مثل خديجة

بنت خويلد تدعوه للقيام على شؤونها . لم تكن شابة صغيرة بل أرملة سبق لها الزواج مرتين ولها العديد من الأبناء. (   ) والأمر المؤكد على أية حال، أن همته ونشاطه فى قضاء حوائجها ولد لديها الرغبة فى الزواج منه.

(   ) حينما لقبوه بالأمين ، كان محمد فى الخامسة والثلاثين من العمر ، يحظى باحترام الجميع وتقديرهم . أصبح له دور فى وطنه الصغير، واستقرت به الأحوال فنعم بالثراء – أو لنقل بيسر العيش – تحوطه مشاعر الود . وكان بمقدوره المضى فى هذه الحياة الهادئة السعيدة خاصة أن كل ما حوله يحثه على هذا. ولكنه لم يكن ليرضى بهذه الحياة اليومية الرتيبة. كان ثمة قلق يستبد به، كان يبحث عن شىء آخر مختلف. نحن نجهل بالطبع تفاصيل خلجات نفسه ، ولن نزعم اللجوء لنظريات التحليل النفسى، ولكن استنادا إلى نزعات النفس البشرية التى لفت فرويد أنظارنا إليها، نستطيع أن نصل إلى بعض الاستنتاجات ونقيم – تأسيسا عليها– بعض الافتراضات النفسية.

وبشكل عام ، كان محمد يترك لدى الناس انطباع بأنه رجل حكيم ، متوازن ، راجح العقل ، يفكر مليا قبل اتخاذ قراراته ، ماهرا فى إدارة شؤونه العامة والخاصة، يجيد التمهل وقت اللزوم ، والتراجع إذا استدعى الأمر، واتخاذ التدابير الكفيلة بإنجاح مشاريعه. كان يتحلى بشجاعة بدنية، مكتسبة أكثر منها طبيعية، أهلته أن يكون محاربا جيدا. دبلوماسى من الدرجة الأولى ، يحكم على الأمور بمنطقية وصفاء ذهن . لكن خلف هذه الواجهة كانت هناك شخصية عصبية مشبوبة العاطفة، قلقة مضطربة، تتوق بشدة إلى المستحيل وتتطلع إليه بصبر نافد . حتى أن الأمر كان يصل به فى بعض الأحيان إلى حد الاضطراب العصبي المرضي.

كان لدى محمد كل ما يؤهله للسعادة ، ومع هذا لم يكن سعيدا. فالسعادة ، هذه الحدود هذا القبول الهادىء والرضوخ للأمر الواقع، لم يكن مما يرضى هؤلاء الذين يتطلعون دائما لأبعد مما فى متناول أيديهم ومما هم عليه، ولن يتمتعون بطبيعة فضولية متلهفة، تنمى فيهم الرغبة فى الحصول على كل ما هو مرغوب. ولابد أن حياة الفقر والإحباط التى عاشها اليتيم الشاب قد نمت هذه الرغبة الجامحة فى داخله . ولا شىء أقل من المعجزات كانت كفيلة بجلب السكينة إلى نفسه.

يقينا ، لم يكن محمد راضيا. فهل كان وراء هذه الحالة النفسية دوافع ملموسة بدونها لم نكن لنفهم توجهاته اللاحقة ؟ وما هى ؟

ليس من العسير تلمس هذه الدوافع وان ظلت الرؤية غير واضحة تماما. فأحد هذه الأسباب التى أثرت لا شك عليه، وربما أثارت دهشتنا، تتمثل فى أنه حُرم خلفة الذكور. كان هذا الأمر مبعث عار للعرب كما للشعوب السامية بوجه عام ، حتى أنهم لقبوا من لم يرزق بالذكور بالأبتر (من البتر).

( ) سبب آخر، لم يلتفت إليه أحد تقريبا ، هو طموحه . وهو طموح مشروع ناشئ عن وعي شديد بقدره . لابد أن محمد اعتبر نفسه شخصية استثنائية وفطن إلى هذا مبكرا ، خاصة أن أحد من حوله لم يكن يهتم بالمسائل الدينية والأخلاقية والفكرية التى كانت تؤرقه. ( )

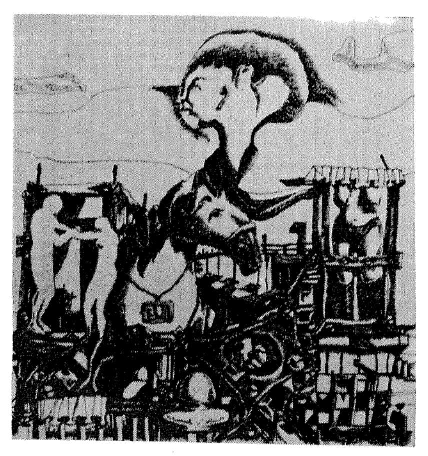
هذا الضيق الذى اعترى رجل يسخر منه قومه بسبب عدم إنجابه الذكور، وهذا الإحباط الناشىء عن رغبة حسية قوية يرده عنها ضميره ووعيه الأخلاقى الذاتى ، هذا الغضب الدفين لرجل يعرف قدر نفسه ويستهين به ساسة قومه، لابد أنه ولد فى نفسه رغبة عارمة فى الانتقام على كافة الأصعدة ، وان ظل خاضعا لمعايير مجتمعه. ومع هذا ، شىء ما فى محمد جعله يتخطى كل الحدود .

( ) لا نعرف على وجه اليقين متى بدأ محمد يختلى بنفسه فى غار حِراء ( ) أو عما كان يبحث ، وماذا كان يفعل على وجه التحديد؟ لا يوجد أى نص موثوق به يعلمنا بالأمر. يقينا انه كان يبحث عن حقيقة الذات الإلهية وقد تحير من كل ما يقال عن الله وتجلياته. ( ) لابد انه راح يتأمل ويدعوا الله لينير له بصيرته. حتى كان هذا اليوم الذى حدث فيه شىء ما كما جاء فى رواية هى أكثر ما ورد إلينا مصداقية، إذ تعتمد على ما أسر به محمد ذاته إلى محبوبته عائشة . تقول عائشة : " كانت بداية الوحى لرسول الله رؤية حقيقية لاحت كما يلوح الفجر أو كما الفلق . "

(   ) هنا ، لا يسعنا إلا أن نتساءل بشأن أمر لا سبيل إلى التغافل عنه ما دمنا نتحدث عن محمد ، وقد أوردت من قبل بعض عناصر الإجابة عليه ، ولكن لابد من تناوله الآن على نحو أكثر عمقا . إذ أن الأمر يتعلق بإخلاصه.

لم نعد في عصر يجعلنا نشك في أمر رسالة دينية حتى نرى فيمن يبلغونها مجرد أفاقين . فقد رأى فلاسفة العقلانية في القرن الثامن عشر ، وعلماء الدين المسيحى والمدافعون عنه ، في محمد نموذجا للدجال. وطبقا لمعلومات مشكوك في صحتها حول حياته روى البعض انه كان يلجأ لبعض حيل السحر ليبهر معاصريه. على أن هؤلاء الفلاسفة كانوا يصبغون هذه الصفة على جميع مؤسسى الديانات ، وكان البعض منهم - مثل فولتير على سبيل المثال - يرى ان محمد لجأ الى أساليب أخف وطأة من غيره لتحقيق هدفه المشروع ودفع شعبه إلى وضع أقل مهانة على ساحة التاريخ. ففى هذا العهد، ونظرا لفظاظة العقلية العربية التى كان عليه التعامل معها ، كان لابد من اللجوء لأعمال الدجل للتأثير على هؤلاء القوم. ومع نهاية القرن التاسع عشر، وضع هوبيرت جريم ، وهو أحد المستشرقين الألمان ، نظرية من هذا النوع نسب فيها لمحمد أهداف محمودة . فطبقا لجريم ، اقتنع محمد بحتمية إيجاد حلول للظروف الاجتماعية التى عانى منها وطنه ، وبأن السبيل الوحيد للخلاص - كما قيل فيما بعد   يكمن في قيام الأغنياء ببذل الأموال . فوضع خطة لمساعدة الفقراء بفرض ضرائب كبيرة على الدخول كانت ستؤثر في المقام الأول على الأغنياء. وأدرك انه ما من سبيل يجعلهم يتقبلون هذا الحل ، ولم يكن يتصور حدوث صراع طبقى على طريقة القرنين التاسع عشر والعشرين. فأراد أن يبث الرعب في قلوب الأغنياء ليحثهم على قبول برنامجه الذى وصفه جريم بأنه " اشتراكى " في فورة حماسه للتقدم المشهود للحزب الاشتراكى الألمانى في ذلك الحين . لذا كان لابد لمحمد أن يتخيل هذه " الأسطورة " التى أختزلها إلى أدنى حد ضرورى ، لتنتهى بيوم حساب لن يفلت من عقابه الأغنياء إن لم يأمَنوا غضبة القاضى السماوى ، بدفع ضريبة " التطهر" أو الزكاة التى شرعها محمد.

ومع تقدم الطب والتحليل النفسى ، ثبت صدق هذه التفسيرات المبسطة عن الدجل سواء كان لها ما يبررها أم لا. (   ) وعلى أى حال ، فان الجميع يفهم الآن - بل يقبل - فكرة وجود أشخاص يعتقدون صادقين تلقيهم رسائل سمعية وبصرية وفكرية من العالم الآخر، وان صدقهم هذا ليس دليلا على أن هذه الرسائل تأتيهم حقيقة من حيث يعتقدون. فقد ساعدتنا فكرة "



اللاوعى " على فهم هذه الوقائع. (   ) وليس علينا إلا الرجوع إلى مؤلفات علم النفس لنشهد مئات من الحالات لأشخاص مخلصين ، حسنت نيتهم ، يرون مشاهد ويسمعون أصوات وهم فى حالة هى أقرب إلى الهذيان. وهم يزعمون مخلصين انهم لم يروا أو يسمعوا قط ما رأوه أو سمعوه. غير أنه بدراسة حالاتهم بشكل موضوعي تبين قيام العقل الباطن بالربط بين مشاهد وأصوات رأوها واستمعوا إليها بالفعل ولكنها انزوت مع الوقت وسقطت فى حيز النسيان. (   )

ولكننا حينما نتأمل أول رسالات أبلغها محمد، وحينما نطّلع على أزمات الشك واليأس التى سبقتها أو واكبتها فلا يسعنا إلا أن نتشكك فى النظريات التى ترى فيها مجرد مظهر لخطة حسبت بهدوء ، ونفذت ببراعة ، وجاءت من وحى الطموح أو حب الإنسانية ، مع أن هذه الروايات تبدو أقرب إلى الصحة . صحيح أنها دأبت على إضفاء صورة خارقة على محمد ، ولكن لا يمكن أن تكون ابتدعت كل هذه الملامح التى أصبغته بصبغة شديدة الإنسانية.



ثورة « مـاو » الثقافية

(حـوار حـول الصـين)

ألبرتو مورافيا

ترجمة : وحيد النقاش

كلمة من المترجم

لاحظت فى الفترة الأخيرة أن دور النشر الفرنسية تولى الصين اهتماماً غير عادى حيث أخرجت المطابع عدداً لايحصى من الكتب عنها مابين مؤلف ومترجم ، حتى ليخيل إلىّ أن أى باحث قد يجد كثيراً من المشقة والعناء فى مجرد قراءتها بروح نقدية . ولست أدعى أننى قد استطعت حتى إحصاء تلك الكتب وقراءتها لكى أختار من بينها واحداً منها يحمل شيئاً جديداً ومفيداً للقارئ العربى فأنقله إليه . وأعترف بأن فى اختيارى لكتاب مورافيا هذا شيئاً من التحيز ، فمورافيا معروف على نطاق عالمى كروائى وكاتب قصة ، ولعل هذا الجانب هو الذى أغرانى حتى من قبل قراءة النص الفرنسى لكتابه، بنقله إلى العربية ، لإحساسى بأن موهبته الروائية لابد أن تجعل من رحلته إلى الصين أثراً أدبيا من الطراز الأول.وبما أن القضايا التى تطرحها الصين هى من أخطر القضايا السياسية التى يعرفها العالم المعاصر ، وربما من أكثرها تعقيداً كذلك ، فربما كان من المستحسن أن يراها القارئ أولا

من خلال حساسية فنان ذى وعى سياسى عميق ، قبل أن يدفعه الفضول إلى الدخول إلى متاهاتها وتعقيداتها من خلال المراجع السياسية الأكاديمية ، والتى قد لاتسعفه الوسائل للإطلاع عليها.

وتلك فى اعتقادى إحدى الوظائف التى خلقتها ضرورات الحياة الحديثة للعمل الروائى ، أو بالأصح للكاتب الروائى . فكما أن أحد الأشكال المتعارف عليها اليوم للسينما هو الفيلم التسجيلى أو الوثائقى ، فإن ثمة ضرورة مماثلة تقضى بأن يقرأ القارئ رواية تسجيلية أيضا. ولكن شيئا من الحذر يدعونا إلى أن نفرق بين العمل الروائى التسجيلى وبين الريبورتاج أو الاستطلاع الصحفى . ربما كان لكل منهما نفس الهدف ، وهو إعطاء القارئ أكبر قسط ممكن من المعلومات حول موضوع معين يؤهله للإحاطة به ، ولكن سيظل للعمل الروائى دائما سحر الفن ومتعته ، وبنياته كذلك ، وبالتالى تفوقه وقدرته على الاستمرار والبقاء .

وإذا صح القول بأنه مامن عمل أدبى يمكن أن يخلو من « وجهة نظر » ، وأن غياب وجهة النظر هو فى حد ذاته أحياناً وجهة نظر ، فإن كتاب ألبرتو مورافيا الذى نقدمه الآن للقارئ العربى يحمل وجهة نظر واضحة بطبيعة الحال ، تقول بأنه لاينبغى أن نحكم على الصين الراهنة بمقاييس أو معايير نستمدها من الغرب أو من الفكر البورجوازى ، أى من خارجها . لأن أى تناقض قد نراه نحن بعيوننا وتصطدم به عاداتنا فى الصين إنما هو انسجام وتكامل لو عشناه من داخل الصين نفسها . ولن نستطيع قط أن نفهم الصين حتى فى ثورتها الاشتراكية المعاصرة إلا إذا عرفناها ككل منذ كونفشيوس ولاوتسى وحتى ماو تسى تونج . ولذلك فقد أخذ مورافيا على عاتقه أن ينير لنا لغز الصين من الداخل ، داعياً إيانا إلى أن ننتقل معه خطوة بخطوة فى رحلته وطوافه عبر الأماكن التى قدر له أن يزورها فى الصين وفى البلاد المتاخمة لها ، ولعله قد استطاع بذلك أن ينقل إلينا صورة « واقعية » لأوضاعها الراهنة ، أى صورة وثائقية قام هو نفسه فيها بدور الراوى والمعلق . وقد رأيت كل فصل من فصول الكتاب وكأنه مشهد مركز غنى حشد فيه مورافيا كل موهبته الأدبية على الملاحظة والتسجيل يدور حول نقطة بعينها أو سؤال بعينه من الأسئلة المطروحة حول الصين.

ونحن فى النهاية قد نتفق معه فى كل ملاحظاته وقد لانقره إلا على بعضها فقط . ولكننا على أى حال سنذكر أنه ألقى الكثير من الضوء على الكثير من قضايا الصين وقضايا الثورة الثقافية والأمور التى تثيرها علاقة ذلك البلد الشاسع بجيرانه وبالعالم . فلنقرأ كتابه إذن على أنه عمل تسجيلى يعرض موضوعاً شائكاً ، ولنستنشق فيه عبير الفن الروائى.

وحيد النقاش

مقدمة :

حوار حول الصين

ب: إذن فأنت عائد من الصين ؟

أ : نعم أنا عائد من الصين.

ب : ما أعظم شئ أثر فيك هناك ؟

أ : الفقر ؟

ب: الفقر ؟

أ : نعم

ب : وهل الصينيون فقراء ؟

أ : بحسب الفكرة التى يكونها الناس فى بلدان الغرب عن الحياة المريحة أقول لك : نعم ، إن الصينيين فقراء.

ب : وما الانطباع الذى خلفه فى نفسك فقرهم ؟

أ : شعرت بالعزاء .

ب : يا للشيطان ! .. إن الفقر فيما أعلم معناه التدهور والحرمان . وأنت تقول أنه قد سبب لك شعورا بالراحة والعزاء ، فكيف يمكن أن يحدث هذا ؟

أ : أنا على يقين من أننى أحسست بذلك ، فلا يمكن للمرء أن ينخدع فى مثل تلك المشاعر. أحسست به طوال الوقت الذى مكثته فى الصين . ولكنك تسألنى لماذا ؟ . إننى لم أفكر بعد فى الأمر ، ولسوف أعمل فيه ذهنى الآن وأحاول أن أرد عليك .

ب : فى الغرب لايمكن للفقر أن يمنح أى إحساس بالعزاء بل ، إنه على العكس يبعث فى النفس شعورا بالقهر ويخلق الرغبة فى التمرد . خذ مثلاً زنوج أمريكا الذين يحرفون احياءهم المنبوذة.

أ : فى الولايات المتحدة يوجد الفقراء ويوجد الأغنياء . والفقراء فقراء لأن هناك أغنياء . والأغنياء أغنياء لأن هناك فقراء . أما الصين فليس فيها إلا فقراء فقط.

ب : هذا صحيح .. كل الناس فقراء فى الصين . كان ينبغى أن أفكر فى هذا .

أ : الجميع فقراء ، نعم . ولكن تسميتهم بالفقراء غير لائقة . يجب أن نبحث لهم عن اسم آخر.

ب: مثلاً ؟

أ : الحق أننى لا أعرف . فليس هناك كلمة يمكن أن نشير بها إلى الفقير فى حد ذاته دون مقارنته بالغنى.

ب : ولكن ماذا يمكن أن يكون الفقر الصينى إذن ؟

أ: أستطيع أن أقول أنه عدم وجود الغنى . أى أنه بمعنى آخر ، فى حقيقة الأمر ، الحالة الطبيعية للإنسان.

ب : وضح ماتعنيه .

أ: المسألة فى منتهى البساطة : يولد الإنسان مجرداً من كل شئ ، عارياً مثل الحيوانات فى الغابة . وحين يولد لايكون قد أصبح بعد إنسانا . وحتى يصير كذلك فإنه يجتلب لنفسه كل مامن شأنه أن يجعل الإنسان إنسانا من دون كل الكائنات الأخرى . وبمعنى آخر يأتى لنفسه بما هو ضرورى للإنسان حتى يتميز عن الحيوان . وذلك لأن الإنسان أقرب مايكون إلى الحيوان يسرى عليه مايسرى على بقية الحيوانات ، حتى إننا لنتساءل غالبا : هل يستحق الأمر عناء أن يصبح الإنسان إنساناً . والفقر يتضمن ماهو ضرورى ليكون الإنسان إنسانا . هذا الضرورى موجود عند حدود الفقر ، بل إنه الفقر ذاته ، لا أكثر ولا أقل . وفيما وراء هذه الحدود يبدأ الثراء ، أى الكماليات . غير أن الفقر إنما هو الحالة الطبيعية للإنسان ، لأن الثراء - الذى هو الكماليات - لايجعل منه إنسانا أكثر مما هو ، طالما أن الفقر قد جعله إنساناً من قبل بالفعل .

ب - كون المرء ثرياً هو إذن فى رأيك حالة غير طبيعية للإنسان ؟

أ : نعم ، غير طبيعية ، وغير إنسانية كذلك .

ب : وماذا يمكن أن تكون تلك الحالة غير الإنسانية ؟

أ : هى إعطاء معنى لكل ماهو كمالى أو زائد عن الحاجة.

ب: ماهو كمالى لامعنى له ؟

أ : بالتأكيد ، ليس له أى معنى ، وإلا لما كان كمالياً أو زائداً عن الحاجة.

ب : قل لى : متى يتعدى الإنسان حدود الضرورى ، أى حدود الإنسانى ، ويدخل فى منطقة الكمالى ، أى غير الإنسانى ؟ .

أ: فلنرجع إلى الصين إذن . إن الصينيين إذا حكمنا عليهم بما نراه في الشوارع ، إنما يحصلون على الضرورى . أما الكمالى فليس لديهم ، على الأقل فى هذه الفترة . هم فقراء كما سبق ان قلت لك . ومع ذلك فلا يستطيع أحد أن يشك فى كونهم متمتعين تماما بصفات البشر ، ولايستطيع أحد أن يفكر فى أن شيئاً ماينقصهم وأن هذا الشئ هو الثراء ، أو مايمكن أن يمنحهم

الشراء إياه : أي الكماليات . لقد كنت فى الصين منذ ثلاثين عاما . وكان هناك فقراء فى ذلك الوقت ، أناس كان لديهم بالكاد ماهو ضرورى للبقاء على قيد الحياة ، وكان هناك أثرياء ينعمون بالكماليات ، الأولون كانوا متدهورين على حين كان الآخرون غير إنسانيين . وما كاد الأثرياء يختفون مع كمالياتهم حتى أصبح الفقراء كائنات بشرية ، ولو لم يكن فى متناول أيديهم فى هذه اللحظة غير الضروريات التى لاغنى عنها.

ب : ومع ذلك فإن الثراء والوفرة يحملان فى داخلهما شيئاً من البهجة والسعادة والحيوية . أنا لا أعارض فى أن توفر الحد الأدنى من الضرورة يكفى لخلق الإنسان ، غير أن لذلك طابعاً حزيناً.

أ : ولكن الوفرة غير موجودة فى العالم الحديث : الانتاج فقط هو الموجود ، وليس فى هذا شئ من البهجة ولا الحيوية.

ب : وأى فرق تراه بين الانتاج والوفرة؟

أ : الوفرة هبة الطبيعة ، لاتكلف تعباً ولا وقتاً ولا مالا وماخلقت لتستهلك حيث أنها تخاطب الخيال . أما الانتاج فعلى العكس يتطلب تعباً ووقتاً ومالاً ، ولذلك فهو لايمكن أن يكون الوفرة أبداً . فليس الانتاج إلا تكراراً ، إنه يعيد خلق الشئ نفسه فى مجموعات ليلبى حاجة للاستهلاك تتزايد باستمرار.

ب : إذا شئت . ولكنك ستوافقنى على أننى إذا قلت للصينيين بأن فقرهم هو الحالة الطبيعية للإنسان لأمكن أن يحتجوا على هذا الكلام . فمن المحتمل أن الصينيين فى غالبيتهم العظمى ، مع التزامهم بحدودهم ومحافظتهم على أساليب الشيوعية ، يرغبون فى أن يكونوا أقل فقراً إن لم يرغبوا فى الثراء الحقيقى.

أ: محتمل . ولكننى اتحدث عن الصين مثلما تبدو اليوم ، ومفترضا إنها ستبقى على ماهى عليه ، وهو افتراض عشوائى بالتأكيد . وبمعنى آخر فإن الصين بالنسبة لى هى يوتوبيا قد تحققت . ربما كان ذلك عن غير عمد ، وربما كان محض مصادفة ، لايهم . تلك اليوتوبيا قد تحققت ، وأنا آخذها كمثال يدعم أفكارى . وقد يحدث أن تصبح الصين بلداً مثل جميع البلاد الأخرى ، بما فيها البلاد الشيوعية ذات الولاء السوفيتى ، والتى يوجد فيها فقراء لأن فيها أغنياء وبالعكس . ولكن الصين فى الوقت الحاضر بلد فقير ، والأغنياء لا وجود لهم بها ، أنها بلد يعتبر الفقر فيه الحالة الطبيعية.

ب : أنا معك . الانتاج والاستهلاك خارج حدود الضرورة القصوى معناها اللاإنسانية . حسنا

ولكن من الذى سيحدد ماهو ضرورى للإنسان وماهو غير ضرورى؟

أ : الإنسان نفسه ، أو قل الحس السليم إذا شئت .

ب : ومع ذلك فقد جاءت فترات من التاريخ كان على المرء خلالها لكى يكون إنساناً أن «يمتلك » قبل كل شئ وأن يستعرض الثراء . فترة النهضة على سبيل المثال.

أ : فترات التاريخ المختلفة لاتهمنى فى شئ ، وحتى التاريخ ذاته بشكل عام لايعنينى . مايهمنى هو الحاضر .

ب : إذن فلنتكلم عن الحاضر . وأكرر لك السؤال : من الذى سيحدد متى ينتهى الضرورى ، والإنسانى والطبيعى ومتى يبدأ الكمالى واللاإنسانى وغير الطبيعى؟

أ : قلت لك من قبل أن ماسيحدد ذلك إنما هو الحس السليم.

ب : أنت تثق بالحس السليم ثقة كبيرة . أكثر مما ينبغى.

أ : نعم أؤمن بالحس السليم لدى الإنسان العادى . فهذا الحس السليم ، فى مواجهة الأشياء الموجودة فى العالم ، لايقوم على الذكاء بقدر مايعتمد على .. ماذا أقول ؟ .. على الشهية واللامبالاة ، على اللذة والضيق ، على الرغبة والاشباع إلخ . الإنسان العادى ذو الحس السليم سيتضايق ذات يوم حين يجرده الثراء من إنسانيته . وعندئذ فسوف يتحرر منه حتى ولو أقسم له فلاسفة الإنتاج والكماليات إنه على خطأ.

ب : ماذا سيفعل الحس السليم تجاه الثراء ؟ اعنى كيف سيتصرف للتحرر منه.

أ : سوف يفجر الحس السليم تجاه الثراء نوعاً من الفعل المنعكس . فحين تصل الإنسانية إلى الدرجة القصوى للاإنسانية ستواتيها الرغبة فى أن تصبح فقيرة وسوف تحقق رغبتها تلك.

ب : تلقائيا ؟ بواسطة فعل منعكس ؟ ولكن التصرفات الانسانية تمر بعمليات طويلة معقدة وتمضى فى طرق شاقة تكلف غالياً.

أ : تلك ستكون عملية إنسانية . والإنسان بطئ.

ب : وماذا ستفعل الإنسانية حتى تعود فقيرة بعد أن كانت غنية ؟

أ : لن تفعل أى شئ على الإطلاق .

ب : ماذا تعنى بذلك ؟

أ : أريد أن أقول أنها ستكف عن الاستهلاك ولن تنتج إلا الضرورى .

ب : ولكن الإنسان يحب الانتاج ويحب الاستهلاك.

أ : أى إنسان ؟

ب : الانسان . هكذا بشكل عام .

أ: لا أعرف شيئا عن الإنسان بشكل عام . إنسان اليوم . نعم . هو كما تقول . يحب الإنتاج ويحب الاستهلاك . ولكن إنسان الغد يمكن أن يكون مختلفا تمام الاختلاف.

ب : فلنتحدث فيما هو واقعي ملموس . نحن نتكلم عن الثراء والفقر الحقيقيين ، كما يمكن أن نراهما اليوم في العالم . فأين يوجد الآن أكثر أنواع الفقر انسانية؟

أ: يوجد في الصين فيما أرى . ولكن في الصين الآن ، بالطبع ، في هذه اللحظة بالذات . فليس من المؤكد أن تريد الصين أو أن تستطيع تحويل اليوتوبيا التي تمثلها وتجسدها اليوم على نحو مؤقت ، إلى واقع دائم . كما أنه ليس من المؤكد أيضاً أن تبقى صين الغد خاضعة لنفس الظروف التي تخضع لها اليوم. فاليوتوبيا لكي تكف عن أن تكون مجرد يوتوبيا وتتحول إلى واقع لابد لها من الدوام.

ب : قل لي الآن : أين يوجد أكثر أنواع الثراء لا إنسانية ؟

أ: على ما أعتقد فإن مكانه اليوم في الغرب.

ب : لنأخذ الأمور بالترتيب . أولاً الصين . فلنسلم بأن يوتوبيا الفقر هناك كما تطلق عليها ، أصبحت دائمة ، وتحولت بحسب أقوالك نفسها إلى واقع مستمر . فكيف سيفعل الصينيون للحصول على تلك النتيجة ؟

أ: ماعليهم إلا أن يستمروا بكل بساطة في عمل ما يصنعونه اليوم.

ب : ولكنك تعلم تماماً أن الصينيين ينبغي عليهم أن يحولوا الصين وأن هذا البلد الزراعي يجب أن يصبح بلداً صناعياً . ففقر الصينيين إذن ليس إلا الأثر الطبيعي الناتج عن استثمار رأس المال الضروري حتى تؤتي الثورة الصناعية ثمارها.

أ: أعرف . أن الصينيين يفعلون اليوم مافعله الروس منذ أربعين عاماً وما فعله الغرب منذ قرن.

ب : فلنسلم الآن بأن الثورة الصناعية قد أنجزت ، وأن فائضا من الأرباح يتراكم باستمرار ، وأن الاستثمارات تقل ضرورتها شيئا فشيئاً . عندئذ ما الذي سيفعله الصينيون برؤوس الأموال التي ستظل تتراكم ؟ سيرفعون الرواتب وينشئون صناعة خفيفة للاستهلاك تسمح بانفاق أموال الرواتب . وهكذا تصبح الصين بلداً مثل جميع البلاد الأخرى ، بلداً غنياً.

أ : هذا صحيح . ولكنك تنسى أننا تكلمنا عن اليوتوبيا . اليوتوبيا موجودة في الصين ، ويوجد أيضا ماهو أهم ، أعني محاولة جعل اليوتوبيا تصبح هي التاريخ . ولليوتوبيا بطبيعة

الحال تتوصل إلى حلول طوبوية نابعة منها .

ب : يسيطر على الفضول حقاً لمعرفة أى حلول طوبوية تلك التى ستتبناها الصين لتحتفظ بفقرها رغم ثرائها .

أ : اليوتوبيا ينبغى أن تصبح وعياً قبل كل شئ . وطالما وجد هذا الوعى فلسوف يكون الحل هو خلق الإحساس بأن الثراء خطيئة ، وجرم ، وزلة.

ب: لقد تمت هذه المحاولة من قبل مع المسيحية دون التوصل إلى نتائج مرضية جداً.

أ : ومع ذلك فقد نجحت المسيحية « لعدة قرون » فى أن تجعل من الفقر الحالة المثلى للإنسان وتلك نتيجة لايستهان بها حتى اليوم . وذلك لأننى ، كما ينبغى أن تضع فى اعتبارك ، لا أتكلم عن كل هذا فى المطلق ، خارج حدود الزمان والمكان ، وإنما نسبياً . فى علاقته مع الزمن والعالم الذى نعيش فيه . فالحالة التى كانت تقترحها المسيحية كانت محددة بصفة « مثالية » . واعترف بأن ذلك كان حكماً مسبقاً عليها بالفشل . أما هذه المرة فلايجب أن نجعل من الفقر « حالة مثالية » . ينبغى أن يصبح الفقر الحل الوحيد بالنسبة للإ نسان ، حالته الواقعية والعادية.

ب : وبأى الوسائل سيتم ذلك كله ؟

أ : لأول مرة فى تاريخها الوجيز جداً فإن الإنسانية كلها ستصير غنية وتتمتع بالكماليات . ولن يكون جزء من الإنسانية هو الغنى فقط . بل ان البشر جميعا سيصبحون ماتعنيه كلمة ثرى . وعندما تعيش الإنسانية جميعها تجربة « الإنسانية فى حالة الثراء » فانها سترغب بالاجماع فى أن تكون فقيرة.

ب : فلنسلم بذلك أيضاً . رغم أن ثلثى الانسانية فى اللحظة الراهنة ليسوا فقط بعيدين جداً عن الثراء ، وإنما شديدو الفقر أيضا حتى انهم ليتوصلوا بالكاد إلى إطعام أنفسهم . ولكن لنسلم معك بما تقول . سيكون الثراء إذن معتبراً كخطيئة . وجرم . وزلة . إلا أنه مع ذلك لابد وأن يتواجد فى مكان ما ولو فى خزائن الدول . فماذا سيفعل به الإنسان ؟

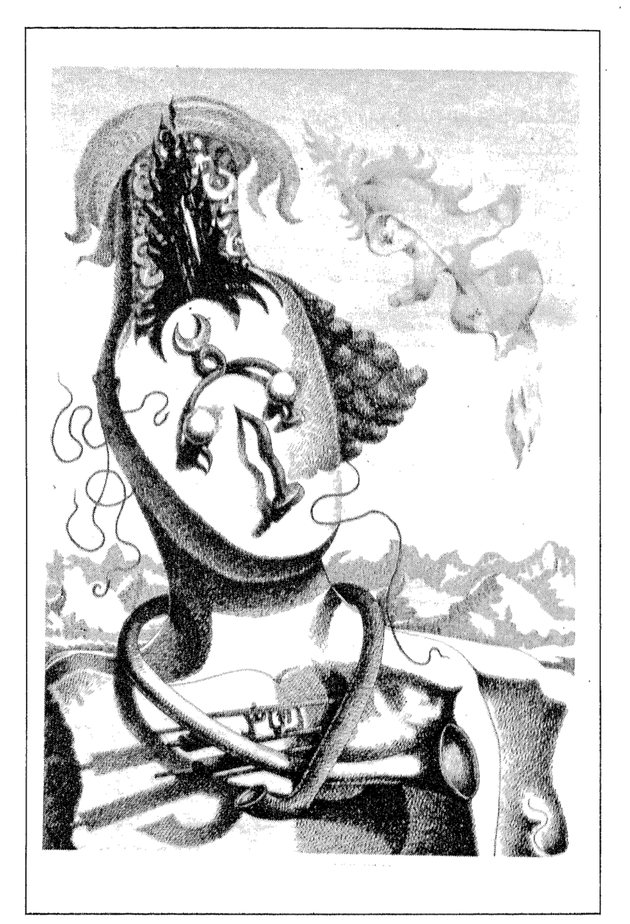
أ : لدى فكرتى الخاصة . هل تذكر الفراعنة ؟

ب : ومادخل الفراعنة هنا ؟

أ : هل سألت نفسك مرة من قبل عن الأهرام ، لماذا هى عملاقة إلى هذا الحد ، ولماذا أنفقوا فيها كل هذا الوقت والعمل والمال ؟

ب : فى الحقيقة نعم . فلماذا إذن ؟

أ : لأنه فيما أعتقد كان ينبغى التصرف بطريقة تجعل الإنسان لايمتلك إذن سوى الضرورى .



أما ماعدا ذلك فقد رمى إلى التهلكة . فالأهرام تمثل فى وقت السلم ماتمثله الحرب فى وقت الحرب . شئ يستخدم فى تحطيم الثراء وإبقاء الانسان فى حالة الفقر.

ب : ولكن أين هى أهراماتنا نحن ؟

أ : أهراماتنا هى مشروعاتنا العلمية لغزو المريخ والزهرة والقمر ، وللسفر فى الفضاء بين الكواكب . تلك المشروعات العلمية ، فى جانبها الذى يتجاوز الحد ، وفى عدد الذين تستخدمهم ، وفى الكمية الهائلة من العمل التى تتطلبها ، إنما هى المعادل للأهرام . فالهرم لم يكن نزوة عابثة فى نظام تيوقراطى استبدادى ، بل كان المحور والمركز الذى تدور حوله حضارة بأكملها . وهذا مايؤديه فى وقتنا الحاضر السفر بين الكواكب.

ب : ولكن الولايات المتحدة ، حتى أضرب لك مثلاً ، تشن الحرب ولها فى الوقت نفسها أهرامها ، أى مشروعاتها لغزو الفضاء . ولم يحل ذلك بينها وبين أن تكون بلداً غنياً.

أ : الولايات المتحدة غنية « على نحو مؤقت » كما أن الصين فقيرة « على نحو مؤقت » . ومثلما استخدمت الحالة الراهنة للصين لكى أضرب لك المثل على الإنسانية الفقيرة، أى العادية والإنسانية ، فأننى سأستخدم الولايات المتحدة لأعطيك المثل على الإنسانية الغنية أى غير العادية وغير الإنسانية!

ب : تتحدث عن الولايات المتحدة أم عن الغرب بشكل عام؟

أ : آخذ الولايات المتحدة كبلد نموذجى للغرب . وحقيقة الأمر إننى إنما أتحدث عن الغرب ذاته.

ب : وفى تقديرك أن الغرب لن يبقى غنياً على الدوام ؟

أ : بكل تأكيد ، لن يبقى كذلك على الدوام . أنه أيضاً يفعل كل مايلزم لكى يصبح فقيراً . ولكن لنترك المستقبل جانباً ولنبق فى الحاضر ، ثم لننظر من أى ناحية يصبح الثراء غير إنسانى وغير عادى.

ب : لننظر فى ذلك.

أ : خذ فرداً من الناس ، لايهم من يكون ، يريد أن يصنع ثروة عن طريق ابتكار شئ جديد وكمالى تماماً . يريد أن يبتكر على سبيل المثال ، حذاء يعزف الموسيقى أثناء المشى . فماذا تراه سيفعل ذلك المخترع حين يتعلق الأمر بتصنيع ذلك الحذاء بكميات هائلة وبيعه على نطاق واسع ؟

ب : لا أعرف . ربما سيلجأ إلى الإعلان عنه .

أ : هو هذا بالضبط . سيلجأ إلى عملية الإعلان . بمعنى أنه سيخلق الحاجة إلى الحذاء الموسيقى ، ولاحظ أن تلك الحاجة لم تكن موجودة قط قبل أن يطرح الحذاء للبيع . فما من منتج

سيقول « أننى أبيع لكم شيئاً لاحاجة لكم به على الإطلاق » ، بل سوف يردد دائماً « إننى أبيع لكم شيئا من المستحيل عليكم الاستغناء عنه » . وتلك العملية التى هى تحويل الكمالى إلى ضرورى إنما هى ذاتها التى تخلق المستهلك.

ب : المستهلكون موجودون فى كل مكان ، وحتى الصينى عندما يشترى لنفسه بنطلونا فهو مستهلك أيضاً.

أ : كلا، أنه ليس مستهلكاً ، بل هو رجل يأتى لنفسه بثياب هو فى حاجة إليها ، وبناء على فكرة معينة عن الإنسان كونها هذا الرجل ، فذلك الرداء هنا إنما يغطى له ساقيه وبطنه وردفيه . أما المستهلك فهو شئ آخر ، إنه مجرد أمعاء .

ب : هو ذا تعبير قوى !

أ : نعم ، أن المستهلك أمعاء . فرد يشبه تلك الأجسام البدائية التى تتكون فقط من الفم والماسورة الهضمية وفتحة الشرج . هذه الأجسام لاتفعل شيئاً سوى أن تبتلع وتهضم ثم تلفظ.

ب : ولكن الصينى الذى يبتاع لنفسه بنطلونا هو أيضا أمعاء بالنسبة لانتاج البناطيل.

أ : يوجد فرق هام . فليس المستهلك أمعاء لأنه يستهلك بل لأنه مقتنع ، مثل تلك الأجسام البدائية ، بأن وظيفته هى الاستهلاك . أما الصينى ، الفقير ، فيشترى لنفسه بنطلونا حتى لايبقى عارياً . على حين أن المستهلك الحقيقى متهيئ لأى استهلاك كان مثل دودة الأرض إذ تترك أى نوعية من الطين تمر فى ماسورتها الهضمية.

ب : أفيكون المستهلك كذلك هو الآخر ؟ دودة؟

أ : إذا كانت تلك الكلمات : « أمعاء » أو « دودة الأرض» من قبيل الكلمات التى تبعث الضيق إلى نفسك لأنها تحمل معنى أخلاقيا ، فلنتركها جانباً. ولنقل بأن المستهلك حلقة تصل الانتاج بالإستهلاك . حلقة إنسانية ولكنها ليست شيئاً آخر أكثر من حلقة فقط . المنتج والمستهلك يمثلان طرفى دودة الأرض التى كنت أحدثك عنها.

ب : أليس الإنسان إلا منتجا ومستهلكا ؟ أليس طبيبا ، ولا فناناً ، ولا عاملاً ، ولا فلاحاً ؟

أ: بكلمة الانتاج أعنى البضاعة أو ثمرة الانتاج ، وبكلمة الاستهلاك أعنى « الرواج » . وينطبق ذلك على أكثر المنتجات دقة وأكثرها إسرافاً وعتها.

ب : لدرجة أن الإنسان الغربى لايفكر إلا فى الانتاج والاستهلاك؟

أ : هو هذا تماماً!

ب : ولايفكر « فى نفسه » ؟

أ : « نفسه » تلك التى تتكلم عنها لاوجود لها . أو أنها بالأحرى لاتوجد إلا فى هذه أو تلك من اللحظتين المتبادلتين ، لحظة الإنتاج ولحظة الاستهلاك . ولكن طالما أن الاستهلاك فى واقع الأمر هو الذى يحدد شخصية المستهلك ـ إذا كان المنتج لايستهلك لا وجود له لأنه لو وجد لمات جوعاً ، فان المستهلك الذى لاينتج موجود ويأكل فى جميع البلاد رأسمالية كانت أو شيوعية ـ فلنقل أن هدف الحضارة الحديثة هو الاستهلاك ، أو بمعنى آخر إفراز الفضلات.

ب : افراز الفضلات ؟

أ : افراز الفضلات ، نعم . أن تطرد خارج الجسم كل مايتبقى بعد الهضم . يستهلكه المرء بأقصى ومايستطيع وبأكبر تشكيلة ممكنة من الأشياء . والمثل الأعلى للمستهلك هو أن يستهلك ، وهو يجتهد أن يكون على مستوى مثله الأعلى . ولكن النتيجة النهائية هى إ فراز الفضلات.أن حضارة الاستهلاك هى حضارة الفضلات المفرزة. وكميةُ الفضلات التى يخرجها المستهلك هى فى الحقيقة بالنسبة لذلك المستهلك خير برهان على أنه قد استهلك.

ب : حسناً: بيد أن هذه ليست إلا مقارنة ، وهى فوق ذلك مقارنة تنحو منحى غامضاً . بقى أن تبرهن أنها يمكن أن تمتد إلى أبعد من معناها الحرفى الذى يؤكد بأن الانسان لايفعل شيئاً فى العالم سوى أن يأكل .

أ : تسرى مقارنتى أيضاً على كل ماليس بمادة للغذاء ولكنه يستهلك بنفس الطريقة ، بمعنى أن الغذاء الصناعى والإفراز الذى يتبقى منه إنما يتجاوران دائما ، مثلما يحدث فى البيوت العصرية أن نرى المطبخ إلى جانب دورات المياه . اذهب إلى الضواحى وسوف ترى المصانع بمخازنها الواسعة وأفرانها العالية التى يتم فيها الإنتاج . وغير بعيد عن المصانع سوف ترى أراضى قاحلة تفرغ بها القاذورات والفضلات والحدائد العتيقة . لقد استهلكت المدينة منتجاتها وهضمتها وتبرزت بقاياها .

ب : أفلا يوجد غير الانتاج الصناعى فى مدينة عصرية كبيرة ؟ هناك ألف شىء آخر ، الثقافة مثلاً.

أ : هناك الثقافة حقاً . المكتبات ، وبائعو الصحف، ودور السينما ، والتلفزيون ، والراديو ، ثم المطبوعات المختصرة ، والمجلات ، وكتب الجيب ، والموسوعات ، وكتب المنتخبات ، والمبسطات ، والترجمات . بيد أن تلك الثقافة إنما تستهلك بالطريقة نفسها التى تستهلك بها المنتجات الصناعية . انها تزدرد ، وتهضم ، وتطرد فى شكل كمية مهولة من الفضلات ، أى العموميات. فمستهلكو الثقافة الذين يأكلون كل شىء لايتغذون من الثقافة ولكنهم يستهلكونها ويبقون ، إذا

شئت ، بالمعنى الثقافى ، سيئ التغذية . لأن الاستهلاك الثقافى لا ينتج إلا البراز الثقافى ، ولاشيء سواه .

ب : ولكن ألا يبدو لك كل هذا ، كيف أقول ، تصوراً عاماً إلى حد ما ؟

أ: من المؤكد أنه تصور عام . ومع ذلك فعالم الانتاج والاستهلاك الحديث هو على هذا النحو، حيث تختفى وراء مظاهره المتعددة فكرة واحدة ، أو بتعبير أدق ، حركة دفع واحد ة.

ب: ماذا ؟ فكرة الربح ؟

أ : كلا ، ليست فكرة الربح . بل شيء آخر . فكرة ، أو حركة دفع جديدة ، لم تكن موجودة من قبل.

ب : إنك تثير فضولى . ماهى ؟

أ : بحركة النقود السريعة التى تصاحب دورة الانتاج والاستهلاك يتحول الربح إلى المرتبة الثانية ، ولايبقى هدفاً فى حد ذاته بل وسيلة لتأمين استمرار الدورة . لا ، ليس الربح أساس تلك الآلة التى تفرز الفضلات ، أى صناعة الاستهلاك ، بل هو شئ آخر.

ب : ماذا ؟

أ : صعب تحديده . يمكن أن نطلق عليه « إرادة القوة» . والواقع اننا سنكون أقرب إلى الحقيقة إذا دعوناه « الخوف من العجز» . وماذا تراها تعنى القوة فى الحضارة الصناعية ؟ أنها المقدرة على الانتاج ، أى فى واقع الأمر المقدرة على محاكاة الطبيعية . والطبيعة قوية لأنها تنتج بافراط ودون توقف . والانسان الطبيعى قوى لأنه يتكاثر . وهكذا فان القوة فى حضارة الانتاج والاستهلاك تقوم بالتحديد على أن تنتج بأكثر مافى وسعها . وبهذا المعنى تأتى عملية الانتاج قبل عملية الاستهلاك . بيد أنه من الواضح أنه لو لم يكن هناك استهلاك لما كان هناك إنتاج.

ب : وماذا يمكن أن يعنى هذا ؟ أن الحضارة الصناعية تريد أن تنافس الطبيعية ؟

أ : نعم ، هذا بالضبط ما أريد أن أقوله . الخوف من العجز ، ولذة ممارسة قوته التى تدفع بمصانع السيارات إلى انتاج عدد دائم التزايد منها ، إنما تقوم على نفس قوة الدفع الخلاقة العمياء التى تدفع بسمكة السردين أن تبيض كل عام الملايين من البيض ، بمعنى أن تدفع إلى الوجود بالملايين من سمك السردين . ومن حسن الحظ أن هذا البيض يلتهم بواسطة أسماك أخرى تضع بيضاً بدورها يلتهم من جديد بواسطة أسماك أخرى وهكذا .. والحضارة الصناعية هى صورة دقيقة لعملية الانتاج التى لا يعتريها الكلال فى الطبيعة ، وهى تنحو مثل الطبيعة تماماً نحو وضع نفسها خارج الزمن ، بمعنى أنها لاتريد أن تأخذ بعين الاعتبار مدى طول الحياة البشرية ،

ودورانها المتواصل بين الانتاج والاستهلاك انما تعتبر فى واقع الأمر معادلا لخلود الطبيعة . ولكن ثمة فرقاً بين خلود الصناعة وخلود الطبيعة.

ب : لاتعرف الطبيعة ماتصنع ، وربما من أجل هذا السبب نفسه بالتحديد ، فان ماتصنعه تجيد صنعه . والحضارة الصناعية على العكس من ذلك تأتى عليها لحظة ، لحظة واحدة من الوعى ، وهذا يكفى لكى تنهزم فى مباراتها مع الطبيعة.

ب : وماتلك اللحظة من الوعى ؟

أ : أنها اللحظة التى يرى فيها الإنسان ، الذى هو الحلقة التى لاغنى عنها بين الانتاج والاستهلاك ، يرى فقيها نفسه ويتأمل نفسه . فى تلك اللحظة يرفض الخلود الذى تقدمه له الصناعة.

ب : وهل يقدر المستهلك على فعل ذلك ؟

أ: المستهلك إنسان أيضاً وقبل كل شئ . وهو يأخذ من الانسان على نحو ما مقدرته على التأمل . أنه يرى نفسه بنفسه .. وينتبه عندئذ أنه إذا كان صحيحاً بالنسبة للطبيعة أن تنتج وتستهلك إلى مالانهاية ، فان الإنسانية على العكس ليست ملزمة بالانتاج والاستهلاك على هذا النحو اللانهائى ، بل ملزمة على الأصح بأن تعبر عن نفسها داخل حدود معينة من الزمان والمكان تضعها بنفسها.

ب : أفيكون ذلك هو الفرق بين الإنسانية والطبيعة ؟

أ: نعم أعتقد أنه ذاك.

ب : ولكن ألا يستطيع المرء بكل بساطة أن يعبر عن نفسه وهو ينتج ثم وهو يستهلك ؟

أ: سبق أن قلنا بأن الحضارة الصناعية هى حضارة افراز الفضلات ، وهذا معناه أن هدفها لايمكن أن يكون شيئاً آخر سوى هذا الإفراز . ماذا يصنع المرء عندما « يتبرز» ربما كان يعبر عن نفسه ..؟

ب : كلا، اننى أقول بأنه يخفف عن نفسه ، على أكثر تقدير..

أ: هو ذا، إنه يخفف عن نفسه . أى انه يهيئ نفسه لحالة الاستهلاك من جديد. وهذا التخفيف هو« التبرز» بالتحديد . ولكن لنأخذ حالة الانسان الذى ينتج كثيراً ويستهلك كثيراً ويصاب بعسر فى الهضم . لدينا عند ذاك الدواء « المسهل» ، أى الحرب . فالحرب تبدو لاغنى عنها ولامفر من وقوعها فى دورة الانتاج والاستهلاك لتعالج المجتمع الذى ينتج ويستهلك من حالات الإمساك المنتظمة التى تعتريه . ففى زمن الحرب يأخذ الجندى مكان المستهلك العادى فى

زمن السلم ، بمعنى أنه يشكل مستهلكاً استثنائياً بالقياس إلى كثافة استهلاكه وكميته وسرعته وتنوعه . إذ فى يوم واحد من أيام الحروب يتم استهلاك مايعادل استهلاك عام كامل كامل فى أوقات السلم ، والجندى الذى لم يعد يرضيه استهلاك الخيرات والثروات ، يستهلك الآن حياة البشر : حياة أعدائه أولاً ، ثم حياته الخاصة بعد ذلك . نعم ، لأننا لاينبغى أن ننسى أن المنتج - المستهلك حتى يكون حقاً كذلك ، يتحتم عليه أن يكون متكاثراً وسفاحاً .فدون تزايد فى عدد السكان لايأتى الانتاج ذو الحجم الهائل الهائل ، وبدون الانتاج ذى الحجم الهائل لايوجد فائض انتاج ، وبدون فائض الانتاج لاتنشأ الحرب ، أى أن نزعة القتل ليست إلا الوجه الآخر للخصوبة.

ب :إذن فالحرب استهلاك للبشر أكثر مما هى استهلاك للخيرات المادية.

أ: أى نعم ! ولقد قيل عنها أيضا أنها قتل للأطفال يأتى متأخراً عن موعده أى قتلهم بعد أن يكبروا . أن الحرب هى استهلاك للبشر بشكل خاص، تنفذه بوسائل عديدة ، ابتداء من الحربة حتى القنبلة الذرية . وبطبيعة الحال لاعلاقة للحربة بتكاثر عدد السكان فى العالم الحديث لأن لدينا القنبلة الذرية . لكن ليس هناك فرق جوهرى بين السلاحين إذ يكمن الفرق بينهما فقط فى قدرة كل منهما على الاستهلاك. والقنبلة فى النهاية مرتبطة بتزايد عدد السكان كما أن تزايد عدد السكان مرتبط بالقنبلة . أريد أن أقول بهذا أنه لو يوجد تزايد فى عدد السكان لما وجدت القنبلة ، أى لما اخترعها الانسان طالما أن الحاجة اليها لم تكن لتنشأ أصلا . لقد ظهرت القنبلة فى عصر العواصم أو « المتروبولات » التى تضم من خمسة إلى عشرة ملايين نسمة لاقبل ذلك . فبين تزايد عدد السكان وبين القنبلة يوجد نوع من « الاستلطاف» ، إذا جاز أن أعبر على هذا النحو ، أو على وجه التقريب نوع من الجاذبية المتبادلة . فالعواصم الكبيرة الحديثة موجودة لتقدم أكبر انتاج من البشر عرفه التاريخ . والقنبلة موجودة أيضا باعتبارها المستهلك. الوحيد الممكن لتلك الكمية الهائلة من الانتاج . ويبدو أنه فى لحظة معينة لايمكن تجنب اللقاء بين الانتاج والاستهلاك ليحلا مشاكلهما معاً فى وئام وحب . أن القنبلة مالثوسية (١) . فقد تنبأ مالثوس بالقحط كعلاج لتزايد عدد السكان وجاءت القنبلة لتحل محل القحط . غير أن مالثوس كان يبرهن على أفكاره بمصطلحات حضارة سابقة لعصر الصناعة ، فما تنبأ بأن الانسان سيكف بمنتهى السرعة على أن يكون مركز العالم ليتحول ـ كما قلنا ـ إلى مجرد حلقة تصل الانتاج بالاستهلاك ولا أكثر من ذلك . وأعتقد أنه سيسلم اليوم عن طيب خاطر بأن القنبلة باعتبارها مستهلكاً للبشر هى أفضل بكثير جداً من القحط والمجاعة.

ب : لاتؤاخذنى ، لكن هناك شيئا لا أفهمه . أن الانسانية متكاثرة بطبيعتها على أى الأحوال

، أليس كذلك؟ هكذا كانت فى عصور انسانية ، مثلما هى كذلك أيضا فى عصر حضارتنا الحديثة القائمة على الانتاج . وانت على حق تماما فى قولك بأنه لم توجد هذه الخصوبة لما نشأت صناعة المنتجات الكثيرة ، ولما كانت تلك الدورة الجهنمية المستمرة والتى يقال لها دورة الانتاج ـ والاستهلاك . غير أن الانسان كان دائما منتجا للبشر ، وبالتالى مستهلكا للبشر ، حتى من قبل أن يكون منتجاً أو مستهلكاً للبضائع المصنعة فى مجموعات هائلة.

أ: أن الضغط السكانى فى العالم القديم لايشبه الضغط السكانى فى العالم الحديث. ففى العالم القديم حدث ذلك الضغط على مستوى الطبيعة ، مثلما كان الأمر بالنسبة للحيوانات تماماً . فقد كانت الطبيعة ، لا الانسان ، هى التى تتكفل بالتصرف فى مواجهة انتاج استثنائى من البشر وذلك عن طريق الاستبعاد الاستثنائى أيضاً والذى تنجزه بواسطة المجاعات والأوبئة . أما فى العالم الحديث فكل شئ ، على العكس ، يحدث على مستوى الصناعة ، بما فى ذلك تكاثر البشر . وهاهنا ، فيما يخيل إلى ، ثمة علاقة وثيقة جداً بين الضغط السكانى أو الديموغرافى ـ تكمن فى حقيقة أن الانسان ، منتج البشر ، يصبح كذلك منتجاً للبضائع ـ وبين صناعة المنتجات الطبية وتنظيم المستشفيات. ذلك لأن انتاج البشر لايتم فى الخلوة المعتمة العمياء لفراش الزوجية بقدر مايتم بعد ذلك بين الأردية البيضاء التى يلبسها الأطباء والممرضات ، فى غرف المستشفيات وقاعات العمليات . أنه فى تلك الأمكنة التى تشبه المصانع كثيراً بكمالها الآلى ، يصبح الانسان منتجاً للبشر وليس فى فراشه . هنا يتم انقاذ مستهلكى المستقبل ومنتجى المستقبل من الموت ، الموت الذى ربما كانت الطبيعة الظالمة والبصيرة بالعواقب قد هيأتهم له . وهكذا فان المستشفيات تخرج البشر مثلما تخرج المصانع السيارات والعلب المحفوظة.

ب : وهكذا فأنت تعتقد بأن الانسان الحديث من الآن فصاعداً وبشكل محتوم لن يكون إلا منتجا ومستهلكاً للخيرات المادية وللبشر ؟

أ: نعم.

ب : يخيل إلى أننى أستطيع أن أفهم ، بحسب طريقتك فى التعبير عن نفسك ، أنك تنفر من ذلك نفوراً عميقاً.

أ: هذا صحيح.

ب : إذن فما الحل الذى تقترحه ؟

أ: لا أرى غير حل واحد . وهو فوق ذلك الحل الوحيد الذى يعتمد على الانسان اعتماداً مباشراً.

ب : ماذا ؟

أ: العفة .

ب : العفة ؟ إنها حل قاس إلى حد ما ، أليس كذلك !

أ : العفة ؟ان الفقر والعفة إذا ماتأملناهما جيداً لوجدنا أنهما الحالة الطبيعية للانسان ، أو ينبغي أن يكونا كذلك اليوم على الأقل ، وفي هذا العالم بالذات . لأنني لا أستطيع أن أتصور كيف يستطيع الانسان اليوم أن يكف عن أن يكون منتجاً ومستهلكاً إلا إذا أصبح فقيرا وعفيفا.

ب : إذا كنت قد فهمت جيداً ، فان الانسان الفقير لايستهلك ، وإذن فهو ليس بحاجة لأن ينتج .والانسان العفيف من ناحيته لاينجب للعالم أطفالا وبالتالى فهو يفرغ حضارة الاستهلاك من محتواها الخاص بها ، أى من ضرورة اشباع حاجات الجماهير الغفيرة . لا أطفال ، إذن فلا جماهير غفيرة . لاجماهير غفيرة ، إذن فلا انتاج ولا استهلاك . هذا صحيح . بل هو أيضاً صحيح جداً .

أ: لقد فهمتنى خير الفهم . ولاحظ فوق ذلك مدى التشابه بين العملية التى تؤدى إلى فائض الانتاج وتلك التى تؤدى إلى زيادة عدد السكان . ضع مكان الآلة الرئيسية (التى تنتج الأدوات) وهى أم الأجزاء العديدة فى الآلات ـ عملية العناق ، الذى هو آلى أيضا ، بين زوجين من البشر فى أعماق فراشهما . سوف تحصل على ثمرة الانتاج فى مجموعات مصنعة بنفس الأسلوب . أننا نستطيع أن نتساءل أين هو الفرق ؟ فهنا فى الظلمة ، فى حالة من الوعى غير الكامل ، بين اليقظة والمنام ، تتحدد ملامح واحد من أفراد البشر . وفى نفس اللحظة هناك فى آلاف المصانع وسط ضجيج يصم الآذان ، ينتجون ، دائماً فى شكل مجموعات ومن أجل ذلك الانسان الذى تحدد ملامحه الآن ، آلاف المنتجات التى سيدفعونه إلى استهلاكها بمجرد مولده ، وبمجرد بلوغه مرحلة الطفولة ، ثم بمجرد نضجه . وهذا الإنسان ـ المستهلك ، من ناحية أخرى ، سيتحول إلى منتج بسرعة ، بسرعة بالغة . وتنغلق الدائرة ولكن حين نتصرف بحيث يكون انتاج البشر أقل من إنتاج الخيرات المادية فلسوف نحصل على فائض الانتاج ، أما إذا كان عدم التوازن عكسيا فسوف نواجه تزايد عدد السكان (أو فائض السكان بمعنى أصح) . العفة فقط هى التى يمكن أن تكسر إنتظام الدورة وتزيل فائض الإنتاج وفائض السكان معاً ، بما يصاحبهما من موكب بشع تسير فيه الحروب والمجاعات والبؤس . العفة وحدها . والفقر بطبيعة الحال.

ب : ولكنك تنسى أن ذلك الزوج من البشر الذى وصفته لتوك بنفور لامبرر له ، حين يتصور المخلوق الجديد المرصود للانتاج والاستهلاك فانما ينجز شيئاً سامياً وعظيماً هو فعل الحب.

أ: لماذا نطلق كلمة الحب على ماليس الا علاقة آلية ؟ أن عضو الذكورة يعمل فى المرآة مثل محرك المضخة . وعند درجة معينة من الاستثارة التى يولدها الاحتكاك تنطلق حيوانات الذكورة ويتحدد الطفل ، فما علاقة كل ذلك بالحب؟

ب : ولكن من الممكن أن يكون هذا الرجل وتلك المرأة متحابين . لقد كانا يحبان بعضهما . ماأدرانا نحن؟

أ: لايؤدى الحب إلى العلاقات الجنسية ، بل إلى العفة.

ب : آه ! لم أكن أعرف هذا ! تلك أول مرة أسمعه فيها يقال أمامى.

أ : أننى أقول الآن وفى هذا العالم بالذات أن الماضى والمستقبل قليلا الأهمية بالنسبة لى ولايعنيانى.

ب : أفصح عما تقصده ، فلست أفهمك.

أ : اليوم ، هنا ، فى هذا العالم بالذات ، ألحب والعلاقات الجنسية غريبة بعضها عن الآخر، بل هى أيضا متعارضة ومتعادية . لم يعد « الفعل الجنسى» شيئا آخر سوى الانتاج . أما الحب فعلى العكس .. أنه الحب . أنه الابتكار ، والبحث ، والاشراق ، والسمو ، والتلاقى ، والخيال ، والتأمل . أنه كل شىء ماعدا الإنتاج.

ب :« الفعل الجنسى » ليس فقط سوى الانتاج كما تكرر علينا أنت إلى حد الملل ! . أنه فى غالب الأحيان يتم بين رجل وامرأة يريد كل منهما أن يمنح الآخر لذة متبادلة . والشبق غير منتج . أنه يمكن أن يصبح فى بعض الأحيان صورة من صور المعرفة.

أ : لكم أتمنى ذلك ! حقاً لقد كانت تلك الصورة من صور المعرفة فى ماضينا العتيق جداً ، ماضينا البدائى والسحرى . ولكنه الآن ليس إلا عملية للانتاج منبتة عما تنتجه . أريد أن أقول أن اللذة التى يتبادلها الرجل والمرأة اليوم ليس لها أى هدف إلى المعرفة . وهذا صحيح لدرجة أنهـا لاتخـتلف الا فى الظاهر عن العـهـر الذى هو بشكل واضح وصريح صورة من صور الاستهلاك.

ب : يا للأسف .كنت على وشك أن أراك تستثنى طواعية حالة الشبق التى تنحو لأن تكون صورة من صور المعرفة . فأيا كان ذلك الانسان العف الفقير الذى تنادى به فانه سوف يصبح بسرعة مهدداً بالانقراض . إذ حين تتوقف الإنسانية عن الانتاج وعن الاستهلاك وعن الانجاب .. فانها ولاشك سوف تختفى بمنتهى السرعة.

أ: لست أقول بأن الانسانية ينبغى أن تختفى ، رغم أننا اليوم لانعرف تماماً الأسباب التى

يتحتم من أجلها أن تستمر فى البقاء . وإنما أقول بأن عليها أن تتخفف من انتفاخها ، إذا صح التعبير، وأن تتقلص ، أن تنتقل من حالة الافراط الراهنة إلى أبعاد جوهرية . غير أنها حين تبلغ مشارف الانقراض فانها ستعثر من جديد بسهولة ، وبفضل الحب نفسه الذى يمكن أن يكون قد كاد أن يقضى عليها ، على أسباب جديدة قوية لأن تتكاثر مرة أخرى . أن الأمور الانسانية ، مثل أمور الطبيعة لاتتبع تقدماً مطرداً يتكون من أسباب تتلوها نتائج ، ولكنها تمضى فى قفزات نوعية.. ولا أرى أى مانع فى أن تأتى من بعد حضارة فائض السكان وفائض الإنتاج حضارة أخرى ذات صفات مخالفة تماماً.

ب : أريد أن ألفت نظرك الى أنك تكرر ماسبق أن قاله غيرك من قبل . فكثيرون هم الذين اقترحوا من قبلك « عصوراً وسطى» جديدة . وقد تبين من بعد أن ذلك لم يكن سوى الوجه الآخر المنمق والمنحط للحضارة الصناعية.

أ: لماذا نتحول نحو الماضى ؟ اننى لاأدعو إلى عصر وسيط جديد ، وانما أريد بكل بساطة عالماً مخلوقاً من أجل البشر لا من أجل الأصنام.

ب : ولكن التكنيك ، على أهميته البالغة اليوم ، لايبدو أنه لايؤدى الى هذا العالم . بل على العكس .

أ: التكنيك يمضى اليوم نحو الالتقاء بحاجات الجماهير التى تنتج وتستهلك ولكنه يمكن تماماً أن يغير اتجاهه غداً ، فيسير نحو الالتقاء باحتياجات المجموعات الانسانية النادرة ، الفقيرة ، والقليلة الخصوبة.

ب: ماذا ؟ نتحدث عن جزيرة بروسبيرو فى « العاصفة » مع الساحر الحكيم وبضعة من الرجال والنساء والشباب الذين لاسلالة لهم يتنزهون على الشواطئ المهجورة تحيط بهم موسيقى سماوية وأصوات غامضة وترفرف من حولهم أرواح خبيثة لاترى؟

أ: لا أدرى . والأفضل ألا نتحدث فيما هو مستحيل الحديث فيه .

ب : يبدو لى أننا قد ابتعدنا كثيراً عن الصين التى كانت نقطة الانطلاق فى مناقشتنا ، تلك المناقشة التى ليست فى النهاية إلا مقدمة لكتاب صغير عن الثورة الثقافية . فما علاقة الصين إذن بكل هذا ! . ان الصينيين فقراء ، هذا نعم ، ولكنهم كذلك بشكل مؤقت ودون إرادة منهم كما اعترفت انت بنفسك فى نهاية الأمر . أما بالنسبة للعفة الآن فليس الصينيون هكذا بكل تأكيد ، على الأقل بحسب ماتعنيه أنت بتلك الكلمة ، وحتى إذا كانوا قد كفوا عن ممارسة الشبق كما كان يقال عنهم فى الماضى . بل على العكس فهم ينحون نحو التكاثر ، وهذا صحيح حتى



أن الدولة تصرفهم عن الزواج قبل سن الثلاثين . فماذا نصنع بتلك الصين التى كانت سبباً فى مناقشتنا ؟

أ : لن نفعل بها شيئاً . وسأكتفى بأن أكرر أننى أردت أن أشرح لك وأن أشرح لنفسى سبب ذلك الشعور بالراحة والعزاء الذى أثاره فى نفسى مشهد الفقر فى الصين . هذا كل شئ . وكون اليوتوبيا الصينية الآن شيئا مؤقتا وعابراً أو أنها ينبغى أن تدوم للأبد ، فتلك مسألة أخرى . لقد جعلت أنا منها أساساً لهذا الحديث . وهذا كل شئ أيضاً !

موارفيا وثورة « ماو » الثقافية

عرض : أحمد الشريف

جاء فى تعليق الناشر العربى على كتاب « ثورة ماو الثقافية » إنه عندما صدر الكتاب للكاتب الإيطالى المعروف « ألبرتو مورافيا » أحدث الكتاب ضجة كبيرة فى أوساط الرأى العام الأوروبى ، ذلك لأن هذا الكتاب يمثل شهادة صادقة لكاتب كبير حول موضوع الثورة الثقافية الصينية ، وهو موضوع كان ومازال مثيراً بالنسبة للعالم ولكنه لم يكن واضحاً ولامفهوماً على صورته الحقيقية خارج الصين . ولذلك جاءت شهادة ألبرتو مورافيا وثيقة مهمة بالنسبة للضمير العالمى كله ، فليس مورافيا متهما بانحيازه للصين حتى يكون هناك شك فى الصورة التى يرسمها للثورة الثقافية أو حتى تكون هذه الصورة متهمة بالنقص أو عدم الأمانة على أن مايعطى هذا الكتاب مزيداً من القيمة والأهمية هو الروح الفنية الساحرة الأصيلة التى تملأ صفحات الكتاب ، فلقد عاش مورافيا مع الثورة الثقافية الصينية بقلبه وعواطفه وحساسيته الفنية ولم يعش مع هذه الثورة بعقل مجرد أو فكر بارد ولذلك جاءت الصورة التى رسمها للثورة الثقافية صورة مليئة بالحيوية والتركيز والجمال. مترجم الكتاب هو فنان شاب خسرته حياتنا الثقافية العربية فى ٣١ أكتوبر ١٩٧١ ، كان

وقتها فى الرابعة والثلاثين من العمر . ويسرد المترجم الراحل وحيد النقاش فقى مقدمته ، الأسباب التى دفعته لترجمة هذا الكتاب « أعترف بأن فى اختيارى لكتاب مورافيا هذا شيئاً من التحيز ، فمورافيا معروف على نطاق عالمى كروائى وكاتب قصة ، ولعل هذا الجانب هو الذى أغرانى حتى من قبل قراءة النص الفرنسى لكتابه ، بنقله إلى العربية ، لإحساسى بأن موهبته الروائية لابد وأن تجعل من رحلته إلى الصين أثراً أدبياً من الطراز الأول » . بعد استعراض وجهة نظر الناشر والمترجم فى الكتاب ، آن لى التجوال بين شعاب ودهاليز « الثورة الثقافية » الكتاب يبدأ بحوار فلسفى حول الصين ، يدور الحوار بين «أ» و«ب» حول الفقر والثراء والانتاج والوفرة .. إلخ دائماً السؤال والجواب ينصب حول تجربة الصين الثقافية واشتباك هذه الثورة بالداخل والخارج ولكن ماهية هذه الثورة الثقافية والتى جعلها مورافيا أهم حدث وقع فى العالم الشيوعي منذ حركة المراجعة للنظام الستاليني؟ الثورة الثقافية فى الأمر تعني بالتحديد مايدل عليه مبناها اللفظى ، أى أنها ثورة لم تندلع منذ بدايتها على المستوى الاجتماعى أى على صعيد التركيبات الاجتماعية ، وإنما اندلعت على المستوى الثقافى أى على صعيد البناءات الفوقية . إن ماو مفجر الثورة الثقافية الصينية كتب كثيراً مثل جميع الزعماء الشيوعيين بيد أنه حسب تعبير مورافيا ، على خلاف الآخرين قد فعل بها شيئا خلال فترة نشاطه الطويلة ، إذ كان فى وقت واحد رجل سياسة ؟ ومحرضاً وقائداً عسكرياً ، ومشرعاً ، وفيلسوفاً ، وشاعراً ، واقتصادياً إلخ ، وهكذا كتب عن كل شىء . إنه لينين الصين ، وتروتسكى وستالين الصين وماياكوفسكى الصين أيضاً . وبعد وصف مظاهر الثورة الثقافية من رقصات وموسيقى وجرائد وصور فوتوغرافية لماو فى أوضاع عديدة ومناسبات عديدة ، وأشياء ورموز مقدسة ، يستخلص مورافيا من كل ذلك عنصرين : الرئيس والجماهير . فالثورة الثقافية تبدو مكونة من هذين العنصرين ، كما أنها تتجاهل وتتجاوز وتتجنب وساطة مثقفى الحزب أو مثقفى البيروقراطية ، بل إنها على العكس تهدف إلى إقامة علاقة مباشرة بين ماو والشعب عن طريق الراديو والجرائد الحائطية والمظاهرات . وثانياً ـ وتلك ملاحظة أكثر أهمية أيضاً ـ فان هذا الشعب ، رغم أن المسألة تتعلق بمجموع الشعب كله ، إنما هو الجزء الشاب من الشعب، أولئك الذين هم دون الثلاثين عاماً . ومعنى ذلك أن ماو ، لكى يفجر الثورة الثقافية ، قد توجه إلى أقل أجزاء الشعب خبرة، وأقلها تمتعاً بالحس النقدى ، وأكثرها عنفاً واستعداداً للهدم ، وأشدها قدرة على الحماس.

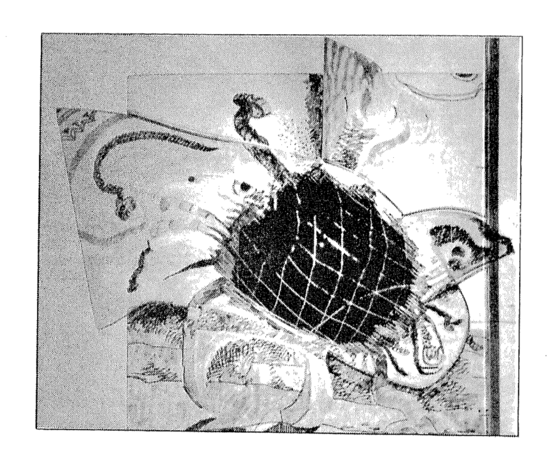
الجدير بالذكر أن تفرد الثورة الثقافية والثورة الصينية بصفة عامة ، يرجع إلى تلوين

ماركس بتعاليم كونفشيوس غير أن ماهو أكثر أهمية من صبغ أفكار ماركس بتعاليم كونفشيوس الذى بدأه ماو ، ذلك التلوين الكومفشيوسى الغريزى والتلقائى الذى أخضعت له جماهير تلك الماركسية ذات التعبير الصينى التى هى الماوية . فليس الأمر متعلقا هنا بعملية فكرية كما هى الحال بين ماو وماركس وإنما بعملية هى فى طابعها العام عملية دينية وفق تعبير مورافيا . ولكن ما أصول هذه الثورة وأبعادها الأخرى؟

يقول مورافيا ، إننا ولكى نفهم جانباً كبيراً مما حدث فى الصين منذ شهر يونيو عام ١٩٦٦ ينبغى أن نعود للوراء حتى سنة ١٩٢٧ ، وبوسعه أن يقول بأن الخلاف بين ماو وبين الاتحاد السوفيتى والذى هو فى رأى مورافيا أصل الثورة الثقافية ومنبعها إنما يرجع إلى ذلك التاريخ . كان الحزب الشيوعى الذى لم يكن قد تكون إلا منذ فترة قصيرة، يجد نفسه واقعاً تحت تأثير ستالين تماماً ، وربما لم يكن ماو بوصفه واحداً من قادة الحزب فى ذلك الوقت ، وبفعل سذاجة ثورية كانت قاسماً مشتركاً بين الكثيرين من أولئك القادة حتى فى الغرب ، يشك فى أن ذلك الديكتاتور المسكوفى البعيد لايمكن أن يكون معصوما من الخطأ على نحو ما . ولكن ستالين خلق كارثة سياسية وعسكرية رهيبة بمجموعة متلاحقة من التعليمات والمواقف الزائفة نبعت من مفهوم تجريدى وشخصى وجاهل بالوضع الحقيقى للصين . فلقد أراد ستالين لأسباب تكتيكية محضة أن يتعاون ماو والشيوعيون بأى ثمن مع تشانج كاى ـ تشيك، ومع حزب الكومنتانج القومى.

وفجأة انقلب تشانج والكومنتانج ضد ماو وذبحوا أنصاره فى كل مكان استطاعوا فيه ذلك . عشرات وعشرات من آلاف من الشيوعيين ذبحوا فى كانتون وشنجهاى وبكين ، ونجا ماو من الكارثة بأعجوبة ، فبدأ بمن تبقوا معه من جيشه الصغير زحفه الشهير صوب الشمال . هذه الأخطاء التى ارتكبها ستالين ، من المؤكد أن ماو قد تذكرها حين فجر الثورة الثقافية بعد ذلك بثلاثين عاماً من الأبعاد الأخرى للثورة الثقافية ، أن ماو عندما قام بالتطهير الكبير – لأن الثورة الثقافية هى فى جوهرها عملية تنظيف هائلة وتطهير لانظير له ـ بطريقة خاصة جدا . لم تنفذ تلك العملية بواسطة بوليس سرى على النمط الستالينى ، لأن الصين أولاً لايوجد فيها بوليس سرى ، ثم لأن هذا التطهير إذا كان يهدف إلى ضرب البيروقراطية فليس من الممكن الاستعانة بالبوليس السرى الذى هو فى حد ذاته بيروقراطية مثل جميع البيروقراطيات الأخرى . كلا إن ماو فى تلك المناسبة ، شأنه فى مناسبات أخرى عديدة لم يستمع إلا لنبضات قلبه هو ، قلبه الذى ظل وفياً على نحو فياض بالسذاجة والحنين إلى بطولة سنوات الحرب

الأهلية ، ومثلما حدث فى ذلك الوقت وجه النداء إلى الجماهير، وإلى الشباب من بين الجماهير ، وإلى الأكثر شبابا من بين الشباب ، ولقد كان يخيل إليه أن أقدامه لم تعد تلمس الأرض وأنه لم يعد يملك نفس القوة التى كانت له فى الماضى ، ولكن هاهو بفضل الثورة الثقافية ، ولأنه استأنف علاقته بالجماهير ، يضع أقدامه من جديد فوق الأرض فتعود إليه القوة. إحدى الأفكار الأساسية للثورة الثقافية التى تتكرر مرات ومرات فى كتابات ماو هى أنه ، على عكس ماحدث فى روسيا المراجعة والمنحرفة نحو الرأسمالية ، فان ديكتاتورية البروليتاريا ، تظل فى الصين خلال مدة طويلة جدا فى المستقبل ، وأنه بالتالى ينبغى الاحتفاظ بحرارة الصراع الطبقى على أشدها ، من ضمن أهداف الثورة الثقافية كذلك ، جعل الصين الزراعية ، أى الصين الخالصة ، البسيطة ، والبكر ، المتكاملة إنسانياً ، تقفز القفزة الرهيبة من الحضارة الحرفية والزراعية إلى الحضارة التقنية الصناعية . وتحاول الثورة الثقافية بشكل أساسى فيما يبدو إعادة بناء نوع من المحافظة الطبيعية فى الصين ، متلائمة مع العصر الحديث ، بمعنى أن تكون قادرة على الاستمرار والبقاء لآلاف من السنين كتلك التى كانت فى عصر الامبراطورية القديمة. {فى ختام العرض ، استعين لطرح مورافيا هذا السؤال وإجابته عليه : لم ، كانت هذه الثورة وماهى أهدافها الخفية ؟ لقد أجاب على السؤال الشائك قائلاً ، إن الثورة الثقافية مقدمة ، ربما كانت غير واعية ، للحرب ضد الولايات المتحدة وفى هذه الحالة ، بتدمير كل ماهو غربى ويخلق حضارة الحرمان الغربية بازاء حضارة الاستهلاك الأمريكية تهيىء الصين لنفسها أحسن الظروف لمواجهة الصراع ، الافتراض الثانى ، أن الثورة الثقافية باختصار ، هى نوع من السور العظيم ، الاستقلالى والقومى ، تنجو الصين بواسطته، وتلك حقيقة ليست جديدة فى تاريخها ، إلى الانغلاق فى داخل حدودها الثقافية الخاصة لفترة طويلة من الزمن ، غير واعية ببقية العالم ، مكتفية بذاتها . ويخيل الينا أن الافتراض الثانى هو الأكثر احتمالاً ، وهذا لأننا لو نظرنا بامعان لرأينا أن الثورة الثقافية تبدو عملية تهدف إلى بناء أرثوذكسية نهائية مرة واحدة وإلى الأبد . وليس من قبيل المصادفات ، خلال التصدع القائم بالعالم الشيوعى بين « المراجعين» و« أصحاب العقيدة » ، أن تكون الصين على رأس هذه الفئة الأخيرة . ومن جهة أخرى فان الثورة الثقافية - وهنا تكمن المفارقة - تسعى بحركتها المسعورة المتواصلة إلى خلق حالة ثبات مطلق ودائم. وهذا التناقض ليس أمراً جديداً فى تاريخ الصين . فحتى الأرثوذكسية الاجتماعية الكونفوشيوسية كانت تدحضها ظاهرياً السكونية والصوفية التاوية . وواقع الأمر أنهما وجهان متبادلان لثقافة واحدة.



أكثر من صمت !

(اطلبوا الشعر ولو فى الصين)

شعر : هاجين
ترجمة وتقديم : طلعت الشايب

الذين صنعوا التاريخ .. وخدعهم التاريخ !

" هاجين " شاعر صينى من مواليد ١٩٥٦ ، اسمه الأصلى " زيو فى جين " والقصائد المترجمة هنا تقدم طرفا من تجربة مريرة فى الصين فى ستينيات وسبعينيات القرن الماضى ، وهى ليست تجربة شخصية محددة بقدر ماهى تجربة وطن بأكمله ، حيث تستثيره ذكريات تلك الحقائق الصعبة التى لاتبلى بمرور الزمن.

كانت هناك أمور أكثر إثارة للرعب فى الثورة الثقافية التى شهدتها الصين ، ولكنه لايقصد فى هذا الكتاب أن يروى حكايات مرعبة ، وإنما يقدم مشاعر الناس عن موقفهم تجاه تلك الأحداث الجسام . البشر فى هذه المجموعة الشعرية " بين أكثر من صمت " ليسوا مجرد ضحايا للتاريخ وإنما هم صانعوه . وبدونهم يبقى تاريخ الصين المعاصر صفحة بيضاء

التحق " هاجين " بالجيش الصينى فى ديسمبر ١٩٦٩ قبل أن يبلغ الرابعة عشرة ، كانت المدارس قد أغلقت إلا أن التلاميذ كانوا يستدعون من وقت لآخر لكى يقوموا بنسخ مقتطفات من أقوال " الرئيس المعلم " ماوتسى تونج ، " أيامها كان يقال إن الروس يخططون لغزو الصين ولذلك كان الجميع يريدون أن يدافعوا عن الوطن " ، خدم " هاجين " فى القوات المسلحة لمدة خمس سنوات ، ثم استأنف حياته الدراسية فى ١٩٧٨ ثم ذهب ليواصل دراسته فى جامعة " برانديز " ، ولأن والده كان ضابطا بالقوات المسلحة ، لم يذهب إلى الريف أو المناطق البعيدة ـ مثل ملايين غيره ـ لإعادة تأهيله وتربيته أيام الثورة الثقافية . وبالرغم من أنه يعتبر نفسه شخصا حسن الحظ ، إلا أنه يخاطب أصحاب الحظ السيئ

الذين اختفوا فى قاع الحياة ، أولئك الذين صنعوا التاريخ وخدعهم التاريخ .

القصائد المترجمة والمنشورة هنا مختارات من مجموعته " بين أكثر من صمت " التى كتبها بالإنجليزية وصدرت عن جامعة شيكاغو - ١٩٩٠

• حديث الجندى الميت

(فى عام ١٩٦٩ مات أحد الجنود فى حادث غرق سفينة وهو يحاول أن ينقذ تمثالا من الجبس للزعيم " ماو" ، منح الجندى وسام الاستحقاق من الطبقة الثانية ودفن عند سفح أحد الجبال فى مقاطعة هنشن)

سئمت رقدتى فى هذا المكان ،
الجبل ليس سيئا .. ولا النهر ...
أحيانا يأتى إلى هنا دب أو خنزير برى أو غزال ،
كأننا مجموعة من البشر المنبوذين ،
هنا .. أشعر بالوحدة ، وأفتقد البيت ،
وعندما يجئ الشتاء
يصبح الطقس شديد البرودة
والآن .. أبصرتك قادما مثل سحابة صغيرة
تجول فوق أرض معشبة،
أدركت أنه لابد أن تكون أنت ،
لأن أحدا لم يأت إلى هنا منذ سنوات.
لماذا جئت معك بنبيذ وشواء وعملات ورقية مرة أخرى؟
لقد قلت لك عاما بعد عام
إننى لست ممن يؤمنون بالخرافات
هل جئت معك بالكتاب الأحمر ؟ .. بالكنز ؟
لقد نسيت بعض العبارات
وأنت أدرى بضعف ذاكرتى ،

وهكذا نسيته مرة أخرى هناك فى البيت !
لماذا نسيته ؟
وماذا عن التمثال الذى أنقذته ؟
هل مايزال فى المتحف ؟
وهل زعيمنا العظيم بصحة جيدة ؟
أتمنى أن يعيش عشرة آلاف سنة !
فى الأسبوع الماضى حلمت بأمنا
وهى ترى وسام الاستحقاق لأحد الضيوف
مازالت فخورة بابنها
وكانت رأسها مرفوعة وهى ذاهبة إلى الحقل
إلا أنها كانت تبدو أكبر سنا من العام الماضى ،
ولون شعرها الأبيض أزعج عينى.
لم أر أختنا الصغيرة
لابد أنها كبرت .. هل لديها صديق الآن ؟
لما تبكى ؟ قل شيئا ..
أتظننى لا أستطيع أن أسمعك ؟
فى السنوات الأولى كنت تأتى
وتقف أمام قبرى وتقسم بأنك ستتخذنى قدوة لك ،
وفى السنوات الأخيرة،
كنت تبكى فى كل مرة ..
عليك اللعنة .. لماذا لاتفتح فمك؟
لابد أن شيئا ما قد حدث !
ماذا ؟ لماذا لاتنطق ؟

• السير نحو الشهادة!

أصدر القائد الأمر ،

تقدمنا ...

كنا نرفع الأذرع حتى تصل إلى مستوى الأكتاف

وكان كل منا يلمح جاره بطرف عينه

لكى نحافظ على استقامة الصفوف ،

كنا نسير وكأننا فى عرض عسكرى

رغم أننا كنا نعرف ، أنه مجرد تدريب ،

ثم توقفنا أمام حفرة لجمع القمامة

كانت كبيرة وعميقة..

بقينا على حافتها وكنا نسير فى مكاننا ..

" إلى الأمام .. سر " من قال قف ؟ "

كان القائد يصرخ .. " لو متم .. سيعرف

أهلكم أنكم شهداء "

... وسرنا إلى الأمام .. !

كان من السهل أن تصبح شهيدا..

وكانت هناك طرق كثيرة لذلك !!

* صفحة من مفكرة تلميذ!

راديو بكين أذاع أخبار الانتصار،

تم إسقاط ٤٧ طائرة أمريكية ،

كنا سعداء ونحن متحلقون حول الراديو

وكنا فخورين بأعمامنا الفيتناميين

الذين يسقطون الطائرات الأمريكية .

مثلما يصطادون العصافير ببنادق الرش.

قررت مدرستنا أن تقيم احتفالا كبيرا ،

كما فعل الناس فى بكين بالأمس،

لدعم الشعب الفيتنامى البطل
ولإدانة الوحوش الأمريكيين ،
ستكون هناك دعوة للتبرع،
أعرف أن كل التلاميذ وكل المعلمين
سوف يتبرعون بكل مالديهم
أنا سأتبرع بمصروفى للفيتناميين
معى خمسة وثمانون سنتا
لايهم .. إن لم أشتر حلوى هذا الشهر!
فى الأسبوع الماضى
نظمت المدرسة مسابقة فى الكتابة
كان الموضوع " ماذا أفعل لمساعدة الفيتناميين؟"
لم أفز بالمسابقة .. لم يكن قلمى قويا ،
فازت بالجائزة " منج منج"،
التى أنهت مقالها بهذه العبارة العبقرية :
" كطفلة ، ينبغى أن أحافظ على طموحى
بأن أطرد الذئاب الأمريكيين من الأرض
ذات يوم !"
هنأناها ، ووعدناها بأن نفعل مثلها ..
عندما نكبر !!
* لأننا لانجرؤ على الطموح !
كنا كلنا أطفالا أبرياء
أمالنا متواضعة ،
وفى ذلك الصباح .. عندما نادى المعلم أسماءنا ،
وقفنا وكنا نقول على استحياء ..

عندما نكبر نريد أن نكون :
" جنديا .. معلما .. عاملا .. مزارعا .."
ولكنك أعلنت دون تردد :
" هدفى أن أكون رئيسا لبلادنا "
انزعجت المعلمة .. انتابها الفزع الأكبر !
وانفجرنا نحن فى الضحك
حتى أنت .. ضحكت !
ضحكت مثل ديك صغير يقف على رأس حقل قمح ،
ليحى شمس الصباح المشرقة !
فى اليوم التالى ،
عينوك لكى تشعل الموقد فى غرفة الدرس
طوال فصل الشتاء...
ولعدة سنوات كنا ندعوك " الرئيس وانج "
ثم نثرثر من وراء ظهرك :
ياله من أبله كبير !!

• صبى فى الثالثة عشرة يتهم معلمه!

كم مرة كنت تحدثنا
عن شجاعة أولئك الشهداء الثوريين
الذين لم يضعفوا تحت وطأة التعذيب!
كانوا يوثقون فوق كراسى التعذيب
وفوق أقدامهم القرميد الملتهب ،
كانوا يجبرون على مشاهدة إعدام رفاقهم ؛
إلا أنهم كانوا ثابتين .. لم يهتزوا ..
كان الأعداء يدقون المسامير فى أظافرهم

ولكنهم لم يكسروا إرادتهم..

وكنت تقول لنا :

لكم أن تتخيلوا يا أبنائى الأعزاء

كم كان ذلك صعبا ومؤلما ،

لأن كل إصبع متصل بالقلب...

وبالرغم من ذلك ..

لم يستسلم أبطالنا

وعندما جاء الحرس الثورى ليأخذوك

كنت وديعا ..

لطموك على وجهك..

كنت مذعورا...

لم تقو على النطق

وأثناء تجريسك ،

كنت تردد كل مايطلب منك أن تردده

لدرجة أن تقول عن نفسك :

" أنا بيضة سلحفاة "

وفى الصباح التالى ،

رأيتك تركض ضمن فريق " الوحوش والشياطين "

وكنت أسمعك تهتف معهم :

" اللين مع من يعترف

ولارحمة مع من يرفض "

" نحن أعداء الثورة

ونستحق الموت مائة مرة "

" لابد من التخلى عن ذواتنا القديمة ..



ولنبدأ حياة جديدة"

أستاذى :

كيف تتوقع منى أن أحضر دروسك مرة أخرى،

وأن أستمع إليك كتلميذ نجيب ؟!

• ليلة سعيدة !

بعد عشرة أعوام أعمال شاقة

فى مزرعة الخنازير

أخبروك صباح الأمس

أنه قد أعيد تأهيلك

وأنك ستعود إلى المدينة

التى تعمل بها صحفيا

ليلة أمس

كنت تبتسم لنا سعيدا ، ولأول مرة .

ثرثرنا طويلا .. وشربنا النبيذ

مع النقانق التى كنا نحتفظ بها لمناسبة خاصة ،

حتى السجائر كانت تضوى فى أيدينا

وتبرق مثل النجوم ونحن فى السقيفة الصغيرة

كنت تتكلم عن خطتك المستقبلية

وأنك مازلت فى الثامنة والأربعين ،

،وأمامك سنوات فى العمر ممتدة

لتقوم بأشياء كثيرة

كنت تتكلم وتتكلم

حتى أصبح لسانك ثقيلا لايقوى على حمل الكلمات ،

ومع ذلك كنت تضحك وتضحك

وكأنك فزت بالماراثون ...

وصباح اليوم

استيقظنا كلنا مبكرين لكى نودعك

ولكنك لم تقم من رقدتك

فشلنا فى أن نوقظك

كنت ترقد بإهمال ولامبالاة،

ميتا فوق سريرك الحجرى !!

• إعدام ثورى مضاد !

لم يعد لتوسلاته جدوى..

استجداهم أكثر من مرة

لكى يسمحوا له بأن يتكلم أمام قائد المستشفى العسكرى،

قالوا له إن أحدا لن يستمع إليه ،

وإنه مجرد شخص فاسد

ولايستحق سوى طلقة واحدة !

وقال قائد الفرقة العسكرية:

" لدينا أوامر بسلخ جلدك

لترقيع الحروق الكبيرة فى جسد " ليولى"

الذى خاطر بحياته لإنقاذ الخيول

فى الحظيرة المحترقة !

هيا !! "

ثم أخذوه إلى التلال خلف المستشفى .

كنا وقت الغداء

ومكبر الصوت يصرخ بالموسيقى

لئلا يسمع أحد صوت الطلقة فى الغابة.

وتوقفوا عند معبد مهجور
كان القرويون قد سرقوا أحجاره وأخشابه ،
وعلى البعد ، كان ضوء يشع مثل دودة ضاوية ،
لم يعرف إن كان نجما أو مصباحا
لاشئ يهم ، ظنه النجم القطبى
همه الوحيد ، كان أنه لم يبلغ التاسعة عشرة بعد ،
وأن والديه لن يعرفا كيف اختفى.
نزعوا الفوطة من فمه ، وقالوا :
" الآن تستطيع أن تتكلم إن كنت تريد "
وفجأة .. بدأ يصرخ
" اللعنة عليكم جميعا...
اللعنة على المستشفى كله ،
وليولد أطفالكم مشوهين ، الموت لهم جميعا ...
اللعنة على " ليولى" .. وعلى أسرته .
ولتصعقهم الصاعقة "
ورفعوا مسدساتهم ،
ورفع هو يديه المصفدتين:
" عاش الحزب الشيوعى الصينى ،
عاش ...."
وانطلق أحد المسدسات
كان يريد أن يصرخ " .. الرئيس ماو "
ولكنهم لم يمكنوه من إكمال عبارته ،
جاءت الطلقة فى قضيبه مباشرة ،
وهى أفضل طريقة للحفاظ على الجلد

صالحا للاستخدام !!

● طرق !

تحت قدمى طريقان .. بوعود مختلفة ،

أحدهما يؤدى إلى بستان مليء بالكمثرى والمشمش،

والثانى إلى بهو فسيح حيث قاعة سينما ،

وحيث إن عقلى لايستطيع أن يختار بينهما ،

فإن كل ساق منهما تتبع رغبتها ،

اليمنى تتجه ، بقوة ، يمينا ..

واليسرى ، بثقة ، يسارا

وبسيرى فى الطريقين

حولت رأسى إلى بالون أحمر ..

يمضى إلى أعلى!!

● إلى شاعر صينى قديم!

فى تلك الليلة ،

كنت فى حالة سكر شديد

ألقيت الناى بقوة فوق الطاولة الحجرية،

لم يستطع القمر أن يعدل الكؤوس المقلوبة ،

الكؤوس تبعثرت

رغم أنه كان يشحذ سيفك

وأنت واقف على جسر طويل وحيد،

القصائد المكتوبة على قصاصات الورق

ذهبت مع الريح ،

وتركتها تسقط فى النهر

النهر الذى كان مليئا بالضفادع وبراعم التفاح ،

" ماجدوى أن تكون مشهورا كشاعر؟"
كنت تهدد فى الليل المغطى بالضباب
" كل شئ سيصمت بعدى بألف عام .. بعدى! "
ورفعت يدك الخالية
" دعنى أشرب " ، وسقطت على الأرض ،
" دعنى أنام " ، ونمت عميقا على الجرف ،
والآن ، وبعد أن مرت ألف عام ،
اليوم ، أضع يدى فى نهر آخر.
ماؤه صاف ودافئ ،
من بين أصابعى ،
تتسرب الضفادع وبراعم التفاح
بينما تنساب عبر ذراعى
قصائدك!!

• عامل شاب يرثى صديقه :

لأننى فشلت فى أن أحب رئيسنا الراحل،
أكثر من حبى لك ،
اتهمتنى بأننى بلا قلب ،
لم تكن ثمة جدوى من الشرح ،
وهكذا بكل بساطة ..
كنستينى من طريقك مثل " العرسة "!!
لم أكن حسن الحظ مثلك
لكى يختارونى من بين مئات التلاميذ فى المدرسة
لكى أطوق رقبته بوشاح أحمر ،
كما أنه لم يقم أبدا بزيارة مدينتنا ،

التى نشأت فيها ،
شاهدته فى الأفلام فقط ،
وقرأت عنه فى الصحف ،
أعرف أنه كان رجلا طيبا ،
وأنه كان يعمل ليل نهار من أجل الشعب ،
وعندما مات ، بكيته مثل أى منكم، .
إلا أننى فشلت فى أن أحبه
أكثر من حبى لك ،
أعرف كيف تزهر وجنتاك عند الابتسام ،
وكيف تغيم عيناك عند الخجل ،
وكيف يتأود جسدك عند المشى،
وكيف يشمخ أنفك عند السخرية ،
فكيف تريدين أن أحبه أكثر من حبى لك ؟
ليتنا - أنا وأنت - كنا أصغر بعشرين عاما ،
أو أكبر بثمانين عاما ، -
لكى نحب بدونه !!

● كاتب يلتقى صديقته فى محل سمك !

لو أننى كذبت عليك ،
فلربما كان ذلك مفيدا ،
لو كان لى لسان مداهن ،
ولو أن سمعك ضعيف
فلربما كان ذلك مفيدا أيضا ،
يالسوء الحظ،
كان قدرى أن أقول ،

وكان قدرك أن تسمعى أنك لن تكونى أبدا

" السيدة تاتشر " ، أو امرأة قوية،

كما كنت تحلمين دائما ،

سلطة .. وأسرة سعيدة ،

واليوم .. أنا واقف فى الصف

لكى أشترى بعض السمك

وأنت فى الصف أيضا ،

طفلك على ذراعك

لكى تشترى حصتك من السمك ،

ليس من السهل أن نحتفل بعيد الربيع جيدا ،

" لماذا لاتجدين مكانا لكى تستريح "يالنج " ؟ ،

يمكننى أن أقف مكانك فى الصف ،

وسأخبرك عندما يأتى دورك

اعطنى سلتك "

طفلك نائم بعمق ،

كان يمكن أن يكون طفلى ،

لو أننى - فقط - كنت كذبت عليك !!

● صوت من الحرس القديم !

لأننا غرقنا أكثر من مرة ،

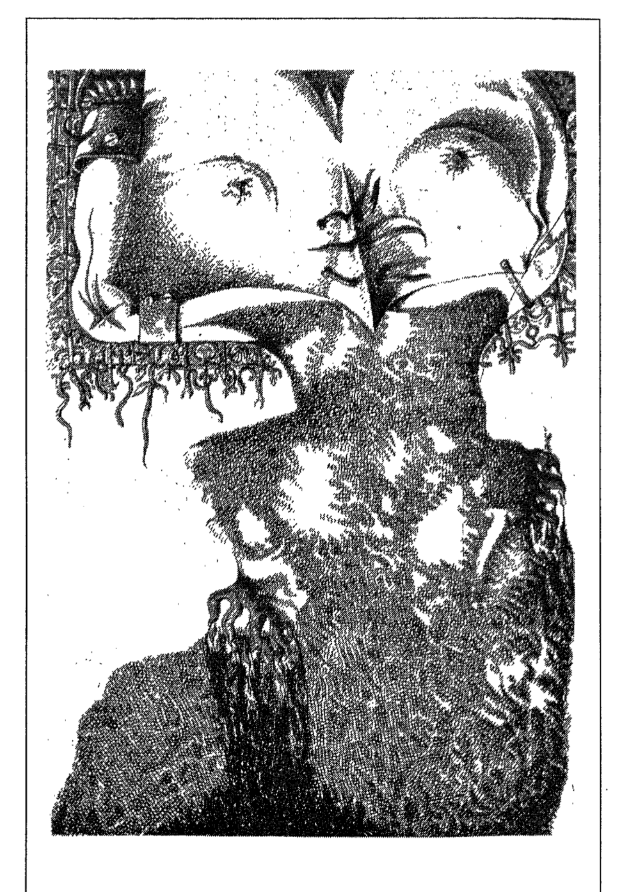
فلن نبحر مرة أخرى ،

لأننا خدعنا أكثر من مرة ،

فلن يهتم أحد أو يعبأ بوجود أى حقيقة ،

حاول أن تقنعنا

بتصور الأعمال الرائعة فى الماضى ،



عدنا بجبل من الذهب في الأرشيف ،
قلوبنا الهرمة التي أحرقتها الأحلام،
سقطت مثل الشهب على الشاطئ،
هي تلك الصخور التي تراها أمامك ،
والتي لاتهزها الأمواج ،
أرجلنا بترت على الطاولات
التي اعتقدنا أنها خشبة المسرح
حيث كنا نرقص رقصة الولاء والطاعة ،
الآن ، نحن لانقوى على الحركة ،
سواء نحو النهر أو على اليابسة ،
ومهما قلت
فإن الألسن التي عرفت كيف تسافر ،
سوف تجيبك " نعم ياسيدى ، نحن رهن الإشارة !"

• لأنهم سوف يسكتونني !

بمجرد أن أمتلك حرية القول ،
سيفقد لساني قوته ،
وحيث إن قصائدى تحاول أن تكسر الجدران
التي تعزل أصوات البشر ،
فإنها تصبح مثاقيب ومطارق .
ولكنهم سوف يسكتونني
رابطة العنق المزركشة بالنجوم حول رقبتي ،
يمكن أن تصبح كوبرا تلتف حولها ،
كيف يمكن أن أتحدث عن القهوة والزهور ؟!

• صورة فوتوغرافية من الصين !

أثناء عشائنا الأخير

قلت إنك أخرت موعد عودتك كثيرا

لأنك لم تستطع أن تغلق فمك

الصورة التى أرسلتها إلى ،

تبدو فيها سعيدا بعودتك مع زوجتك وأطفالك،

وخلفك .. تبدو الطرق الملتوية متشابهة ،

فوق جبل الراهب الصغير

حيث يخيم الهدوء

إلا أننى مازلت قلقا

بسبب تلك الابتسامة على وجهك !!

* أفكر فيك ثانية هذه الأيام !

ونحن نغادر بيوتنا للالتحاق بالجيش ،

انفجرت فى البكاء فى القطار ،

قلت : سأفتقد والدى ، فأنا لم أسافر بعيدا ،

فى حياتى هكذا "

إلا أنك قلت أيضا :

" من واجب الكل أن يدافعوا عن الوطن "،

وقلت إنك ستقاتل المراجعين الروس حتى النهاية ،

أما أنا ، فأطرقت ، ولم أبك ،

ولكن دموع أمى كانت تصارع الريح الباردة ،

لكى تعطل القطار المتجه نحو الشمال .

**

وعلى أرض الشمال ،

ضاعت آثار أقدامنا فى الثلوج

لكى تحلل طبقات الجليد

لم يكن علينا أن نرتدى قبعات الفراء
ونحن نحرس الحدود
ونسقى جيادنا من الينابيع .
**
وفى النهاية .. خلخل المطر التربة السوداء
وتفتحت الزهور على منحدرات الجبال،
لم تكن الغابات تفهم الحرب ،
ولم تكن الجبال ولا الأنهار تفهم الحرب،
ولكننا كنا ننام كل ليلة
ونحن نرتدى الزى العسكرى كاملا ،
كنا دائما مستعدين للقتال.
**
الدبابات التى كانت تقوم بدور العدو
كانت تنطلق فى الوادى
وانهال عليها مطر من القنابل الخشبية وطلقات المطاط،
كان كل شئ زائفا
ومع ذلك كنا نقوم به بجدية وصرامة،
لماذا اخترت أنت تلك الدبابة
ذات المدفع الدوار مثل منجل هائل،
لماذا اخترتها لتضع عبوة ناسفة فوق ظهرها ،
لقد أرقدتك على الأرض
ليمر جرارها على أطرافك ،
حملناك إلى أسفل التل،
وانثال دمك جدولا صغيرا ،

كان يتدفق فى اتجاه " الأمور"،

**

السقوف بيضاء

الجدران بيضاء

الممرضات بيضاوات

وحدها كانت عيناك سوداوان

تنزلقان ببطء

اصطدمت أبصارنا وكنت تحدق فىّ فى صمت ،

هل تستطيع أن تتكلم ؟

هل تسمع مايقوله الآخرون؟

كنت تتحرك فى سريرك فى بطء مثل سلحفاة مروعة،

وعندما أبصرت ظهرك المعوج

كنت أودع عهدا ..

**

هل مازلت حيا ..

أنت كلب صغير منبوذ..

تعوى دائما على أبواب ضميرى

وهذه الليلة ، فى هذا الصمت الطويل ،

أفكر فيك ثانية

● كلماتنا !

رغم أنك كنت أقوى الأولاد فى الحى ،

إلا أنك لم تقو على هزيمة أى منا ،

وعندما كنا نتشاجر معك كنا نقول :

" أبوك إقطاعى .. وأنت ابن إقطاعى "

وأحيانا .. كنا نقلد صوت أبيك
وهو يردد عندما كانوا يجرسونه فى العلن :
" اسمى لى باو .. كنت إقطاعيا قبل التحرير،
وكنت أستغل الأجراء والمزارعين الفقراء ،
أنا مذنب .. وأستحق الموت مائة مرة " .
حينذاك ، كنت تسحب قبضتيك القويتين،
وتهرب إلى البيت
وأنت تسب وتلعن وتبكى مثل القط البرى ،
كنت تتشاجر بيديك فقط
نحن كنا نتشاجر بأيدينا وكلماتنا ،
كنا نتشاجر ونتشاجر ونتشاجر.
إلى أن كبرنا عنك وعن أنفسنا ،
حتى أرسلوك وأرسلونا إلى القرية نفسها
لكى نعمل معا فى الحقول
ونتقاسم التبغ والشراب ليلا
ونسب قائد اللواء من وراء ظهره
عندما كان يقول :
" أيها البرجوازيون الصغار،
لابد أن تأخذوا أمر إعادة تأهيلكم بجدية"
ونحن نلعنه من وراء ظهره ،
حتى تنفد الكلمات !



مؤنس الرزاز.. وسيرته الجوانية



مؤنس الرزاز
على بن أبى طالب مثالى الأعلى

حوار. هاشم غرايبه

مؤنس الرزاز كاتب غنى عن التعريف ومبدع عصى التصنيف ، وإنسان أوسع من أن يصب فى قالب .

لعله من السذاجة أن أعرف بمؤنس الرزاز ، كما أنه من الغبن لتجربته الحياتية الابداعية أن أحصرها بمقدمة من عندى .

هو مؤنس الرزاز ، وكفى ...

أن تحاور صديقا فى أمور الدنيا وتشطح معه فى شئون البلاد والعباد شرقاً وغرباً أمر يختلف عن الحوار المعد للنشر.

يحدث أن تحاور صديقك فى أمور شتى ، اليومى والمعاشى والمتخيل والآتى بعفوية ومزاج رائق ، ولكن الحديث بحضور آلة التسجيل وسلطة النشر، فلا مناص من شىء من التكلف.

بين هذا وذاك ، بين الانفتاح العفوى وبين اللغة المحسوبة ، بين مايقال بين الأصدقاء

وبين ماينشر للناس ، سار هذا الحوار.

كان هذا الصباح ملكاً لشمس آذار وهى تسطع من النافذة الجنوبية فى بيت مؤنس الرزاز فى منطقة اللويبدة (هو يشعر أن اللويبدة كلها بيته).

حلوى العيد مازالت تحتل طاولة الوسط ، ومؤنس يبدو نشيطاً ، حليقاً ، مهندماً ،.. ليس استعداداً لهذا الحوار المفاجئ ، ولكن ليدارى ما أسماه (أنفلونزا نفسية) يمر بها.

ألا يحدث أن نضفى على مظهرنا الخارجى مسحة من الأناقة والترتيب لنخفى فوضى المشاعر وشطحات الروح وتعب الجسد ؟! أليس مايفعله مؤنس بالنص الأدبى شبيه بذلك ، إذ يحيل الشظايا والفسيفساء إلى نسق جميل يخفى خلفه الزلازل والبراكين وعذابات الروح ؟

مؤنس يبدو ألقاً هذا الصباح ومقبلاً على التواصل الاجتماعى ، بعد يوم كامل من اعتزال غير مبرر (لدى الآخرين طبعاً) لنشاطات عيد الأضحى المبارك الذى كان بالأمس.

الشمس تعزز حضورها فى الصالون ، وهو يزداد بهاء وتدفقا فى تبرير اعتزاله للعيد .. وحين أخرجت قلمى وأوراقى ومسجلتى ، ضحك تلك الضحكة التى نفهمها (نحن أصدقاؤه " عصابة الوردة الدامية ") ..

تلك الابتسامة التى تعنى التسليم بالأمر الواقع ، وقبول الدخول فى جو ما دون الانخراط الكامل به ، فللمخيلة انشغالاتها الأخرى ، وهذا يشعرك بأنك تسرق من وقته أو تحد من حريته ، ولكن بطيب خاطر ورضى منه ، ف (لاشئ يستطيع أن يختلس من مزاجى الخاص إلا أصدقائى)! قال مؤنس : الشمس جميلة هذا الصباح أليس كذلك ؟

قلت : الكون جميل والربيع مدهش بألوانه .. وكنت سأستطرد واصفا الطريق من حوارة إلى عمان لولا ابتسامة التقشف التى ظهرت على شفته وهو يتناول فنجان القهوة الذى أمامه ، فبدأت هجومى :

– كثيراً ماتردد : (يادنيا غرى غيرى) هل غررت بك الدنيا ، أم غررت بك هذه المقولة فحرمتك من متع الدنيا ؟!

مؤنس : هذه مقولة لسيدنا على بن أبى طالب ، وهو مثالى الأعلى ، فهو زاهد فى غنائم الدنيا من جهة ، لكنه مناضل فى سبيل الحياة . ولو كان علياً كرم الله وجهه لا يفرق بين الحياة الفضلى من حيث هى موقف ورسالة وبين زخرف الدنيا العابر والزائل لقرر الاعتكاف فى زاوية من الصحراء ، واكتفى بالشكل الظاهر للتصوف . لكنه اختار الحياة واختلف عن الناس بطريقة العيش.

- بين مثلك الأعلى على بن أبى طالب كرم الله وجهه وبين تجربتك الشخصية .. كونك ابن رجل ترك بصمته على الفكر القومى المعاصر وعلى السياسة العربية عموما ، أقصد والدك الدكتور منيف الرزاز ، كيف ترى نفسك بينهما ؟

مؤنس : قد تستغرب كيف كان منيف الرزاز ينظر إلى الدنيا والحياة ، ولم يكن منيف الرزاز يحتقر الدنيا ، وإنما كان ينظر إليها كموضوع صالح للفكاهة بقدر ما كان جاداً فى مواقفه من الحياة ومناضلا عنيدا فى سبيل الأهداف التى يؤمن بها . وإذا سألته ماهو موقفك من حياة ؟ كان يقول : الحياة وقفة عز . أما إذا سألته عن الدنيا فكان يكركر ضاحكا ، وكأنه بهذه الكركرة يلخص موقفا كاملاً وفلسفياً من الدنيا وتقاطعات زحرفها ونشازها ، فيقول :

الحياة تستحق العناة أما الدنيا فـ .. طز

وهنا أنا الذى أقسم هذه القسمة وهى أقرب ماتكون إلى الدقة.

- السخرية المرة ، الكاريكاتير الضاحك ، السخرية السوداء ، السخرية بأشكالها هى ثيمة أساسية فى كتاباتك. ثمة موقفى فلسفى ونفسى (يلمسه الناقد والقارئ فى رواياتك وفى مقالك اليومى أيضاً) كامن خلف السخرية أو تكمن السخرية بين سطوره، وللناس فيما يقرأون مذاهب وتأويلات ، ولكن تنظر أنت إلى السخرية فى أعمالك ؟

(يأخذ مؤنس نفسا عميقا ويضحك .." الفانتازيا اللى نعيشها فى الواقع .. لو نعيشها بجد " ..؟!) ثم ينفث دخان سيجارته ويقول :

مؤنس: السخرية السوداء خير سلاح لمواجهة فجائع الواقع المعاش ، الخاسر الذى يضحك من جراحه منتصر فى حقيقة الأمر ، والمهزوم الذى يضحك من هزائمه هو الرابح الأكبر .

(ضحك من الاثنين) ، وأضاف :

اللطم وشق الجيوب يجعل خصومك يشتمون بك ، والرجولة تقتضى " أن لا نحط واطياً "

(صمت)

أحيانا أسخر من نفسى ، وأحيانا من رفاقى ، وأحيانا من أمتى ،

(....)

أحيانا أسخر من موقف ، أو من فهم لموقف ...

- لا أعرف علياً كرم الله وجهه ساخراً ، فهل ورثت السخرية من منيف الرزاز مثلا ؟

مؤنس : أعتقد ، فقد كان مشهورا بين أصحابه ورفاقه وخصومه بلسانه السليط وسخريته اللاذعة وروحه المرحة ، وهنا ثمة فرق بين سخريتى وسخرية منيف الرزاز ، سخريته أقرب

إلى الكاريكاتير اللاذع المرح ، أما سخريتى فمضمرة ، سخرية مرة وسوداء ، سخريته بيضاء ، وسخريتى سوداء ربما ، منيف الرزاز لم يعرف الكآبة ، بينما عرفتنى الكآبة مبكرا فى سنى شبابى الأولى .

نهض مؤنس ودخل لأمر ما ، وقفت أمام رسوماته المنتشرة فى الصالون ، رحت أتأملها .. عاد يحمل صينية الشاى ، قال : الجو حار ، تنبهت أن الشمس توغلت كثيرا فى الصالون ، أسدل الستارة .. أحسست أن الجو صار أقرب إلى البوح منه إلى المواضيع العامة . قلت : نؤجل الحديث ؟ قال .. لا .. تابع)

– فى مقالك اليوم (٢٠٠١/٣/٦) ثمة سخرية من الكآبة ذاتها ، إذ تقول إنك حين ولدت عمدك أبوك فى البحر الميت .. هل تنظر إلى اكتئابك كمرض ، أم هو تفاعل خاص بين ظروف حياة الإنسان وكيمياء النفس ؟

مؤنس : أذكر أن والدى من حيث هو طبيب استطاع أن يرصد أول نوبات كآبتى بعد انقلاب (أعمامى الرفاق) علينا فى سوريا .. هل التحول المفاجئ من السلطة إلى التخفى والترحال هو السبب ! هو البداية ؟ أم كان لدى استعداد طبيعى للتفاعل مع الكوارث تفاعلا تحكمه الكآبة ..

(شاركته الصمت ، ارتشفت الشاى على مهل ، ضحك وقال

totaler Tea نيالك

ضحكت ، وواصل :

مؤنس : كما تعرف بالنسبة لى لم أكن ابن عضبية عشائرية أو طائفية كان البعث عشيرتى ، وكان رفاق والدى هم عصبيتى ولم أستوعب حكاية (أعمامى) الذين كانوا من أهل البيت اليوم كيف يصيرون أعداء شرسين فى الغد! فحين انشقت هذه العصبة كدرت صفو والدى ولكنها طعنتنى أنا الطفل آنذاك فى الظهر وأصبت بشرخ عميق جدا .

(صمت) ..

علقت : التجربة المرة ! " اسم كتاب للدكتور منيف الرزاز عن حكم البعث فى سوريا فى الستينيات من القرن الماضى "

مؤنس : والمشكلة أن هذا السيناريو نفسه تكرر بحذافيره تقريبا فى بغداد عام ١٩٧٩ ، فما كدت أشفى من ضربة الأولى حتى وجهت إلىّ الضربة القاضية. وهنا يدخل الخاص بالعام وتتداخل فى رواياتى مأساة الأمة بمأساتى الشخصية.

(كان وجه مؤنس متكدرا وهو يملأ رئتيه بدخان السيجارة .) قلت

– ولكنك استطعت تحويل هذه التجربة المرة إلى فن راق عبر رواياتك التى صورت تجربتك الحياتية والسياسية والتى كانت تجربة جيل بأكمله وأمة بماضيها وحاضرها وطموحها نحو الحياة الفضلى فكانت روايات أحياء فى البحر الميت واعترافات كاتم صوت ، ومتاهة الأعراب فى ناطحات السراب ومذكرات ديناصور ، وجمعه القفارى ...

مؤنس : ربما فى ذلك عزاء للقارئ ، أما بالنسبة لى ..

(صمت)

– هل قرأ النقاد هذه المرحلة فى أدب مؤنس الرزاز بما تستحق من إضاءة ؟

(صمت)

– هل أنت راض عما كتب عن رواياتك ؟

مؤنس : لقد غطى معظم النقاد الجانب السياسى تغطية جيدة وهو الجانب الأسهل ، لكنهم فى الغالب الأعم قصروا فى رؤية تأثير الأحداث السياسية على سيكولوجية أبطالى بشكل عام ، أجمل من كتب عن أعمالى هو ناقد ألمانى ، أشار إلى أهمية دستويفسكى وإريك فروم فى حياتى الأدبية ، وقد ركز فى كتابته على الجانب السيكولوجى والنفسى لشخصيات رواياتى ، وهذا أنضج ماكتب عن أعمالى حتى الآن ترجم لى معظم هذا العمل ، صديقى الدكتور سليمان مخادمة ترجمة.

ربما هذا مايبقى من الأدب ، روحه الإنسانية ، فالنقاد العرب مكتوون بنار الأحداث السياسية فلم يهتموا بالبعد السيكولوجى ..

قد تستغرب ، إن قراءً عرباً عاديين التقطوا البعد السيكولوجى فى أعمالى وفتنوا بالجوانب الفلسفية والنفسية لأبطال رواياتى ، حتى أن قارئة ذات ذائقة أدبية رفيعة قالت لى كيف تستطيع أن تعيش حياة عادية بينما تضج مخيلتك بهذه الشخصيات المشروخة الشبيهة بهاملت والأخوة كرامازوف؟

– وماذا كان ردك ؟

(ضحك)

مؤنس : ومن قال إننى أعيش حياة عادية !

بالمناسبة ، أريك فروم يرى أن الإنسان يعيش فى عالم محيط متحرك ملئ بالمتناقضات ، والكتابة تعطى توازنا ما للكاتب فى مواجهة فنتازيا الواقع . ولكن الأمور تتفاوت من شخص

لآخر ، هناك كتاب أسوياء مثل نجيب محفوظ مثلا وهناك كتاب تغلب عليهم صفة عدم التوازن ، ومن الحالات المبدعة المتطرفة فى هذا السياق عرار وتيسير سبول محليا ، وعالميا فان كوخ وفرجينيا وولف ..

– لأى فئة أنت أقرب ، إلى نجيب محفوظ أم إلى فان كوخ ؟

(أطفأ مؤنس سيجارته على عجل وأجاب بحماس)

مؤنس : أنا غير متوازن ، ثمة نظرية لفرانز فانون حول المعذبين فى الأرض ، هل قرأته ؟ أقصد كتاب (المعذبون فى الأرض)؟

قرأته بترجمة رديئة ومختزلة ولكنها أثرت فىّ أكثر من كتاب طه حسين الذى بنفس الاسم.

المهم ، يرى فرانز فانون أن المستعمر بفتح الميم لايكون سويا أبدا والمستعمر بكسر الميم لايغتصب الأرض فقط ، إنما يغتصب النفس والروح والعقل ويشوه الكيان الإنسانى ، وللأسف فإننا ولدنا فى مرحلة مابعد الاستقلال ، حيث حكمنا فى الغالب " مع وجود بعض الاستثناءات " من قبل مناضلين شوههم القمع الاستعمارى ، فأنزلوا أشد العقوبات بأنفسهم و" بنا " التى أثرت على تماسكنا النفسى.

أنظر إلى الوطن العربى من الجزائر إلى لبنان إلى العراق ، ناهيك عن الاستعمار الاستيطانى الصهيونى الذى لم يلحق الضرر النفسى والروحى والجسدى بالفلسطينيين فقط ، وإنما بأبناء الأمة العربية كلها ، وخاصة المشرق العربى .

فمن هنا أستطيع أن أقول إن الظروف السياسية والاقتصادية والاجتماعية والتاريخية التى مررنا بها جعلت الإنسان العربى غير متوازن ، فما بالك بالفئة الأكثر حساسية.

سم الحالة ماشئت : عدم توازن ، فصام ، ازدواجية .. المهم أن ثمة خللا ما ، وعن هذا الخلل لنا أن نكتب ونبدع.

– نبهتنى إلى أهمية فرانز فانون ، هل تأثرت به وهل أثرت كتابته على الأدب العربى الحديث .

مؤنس : أعتقد أن أكثر كاتب عربى استفاد من نظريات فرانز فانون عن التشويه النفسى وعلاقة المستعمر (بفتح الميم) مع المستعمر (بكسر الميم) وهو الطيب صالح فى موسم الهجرة إلى الشمال، وقد صارحته بهذا الرأى فقال : فرانز فانون منجمى الكبير الذى انهل منه ، لكن أحدا من النقاد لم يشر لذلك ! (ثم موجها السؤال لى ، قال مؤنس) هل انتبهت للملحق فى آخر كتاب « المعذبون فى الأرض » ثمة شهادات حية وواقعية لأشخاص من

الجزائر إبان الاستعمار الفرنسي ، وردود أفعال الناس يستطيع أى روائى الاستفادة منها .
سأحضر لك الكتاب بالانجليزية.
(ذهب مؤنس لإحضار الكتاب ، وذهبت أنا للسلام على والدته والاطمئنان على صحتها . ثم عدنا وأنا بذهنى أحضر السؤال عن أثر والدته على كتابته ولكن تصفح كتاب فرانز فانون قادنا إلى حديث آخر)

– من الملاحظ أن المرحلة الأولى من كتاباتك كان للحدث دور هام فى المنظور العام للرواية ، ومن ثم يتشعب السرد من الحدث إلى إضاءات على شخوص تنوء تحت وطأة الأحداث . أما المرحلة الثانية المتمثلة فى الشظايا والفسيفساء وقبعتان لرأس واحد ، وعصابة الوردة الدامية ، وسلطان النوم ، وزرقاء اليمامة ، وحين تستيقظ الأحلام ، فمن الملاحظ أن البعد النفسى للشخوص والبعد الفلسفى للقص صارا أكثر حضورا ، وفلسفة السخرية إن صح التعبير ، صارت البؤرة المركزية للعمل ، والشخصيات الملتاثة صارت أكثر حضورا وفاعلية ، وهذا ما أهمله النقاد تقريبا ، أو بعبارة أخرى الكم الذى كتب عن المرحلة الأولى كان أكبر.

مؤنس : أعتقد أن المرحلة الثانية تحتاج إلى جهد مكثف فى دراسات نفسية الشخصية العربية ، وفى هذا المجال ثمة خطوط حمراء ومحرمات وتابوهات بالإضافة إلى أن الجهد النقدى لابد أن يكون مضاعفا هنا فمن السهل فى المرحلة الأولى الربط بين تجربتى وتجربة حزب البعث.

يقول الناقد : هذا الرجل يقول عن تجربة حزب البعث وهو شاهد على هذه التجربة فهو ابن منيف الرزاز الأمين العام تارة والأمين العام المساعد تارة أخرى ، الحاكم فى سوريا والقائد المعارض فى الأردن ، والحاكم فى العراق ويستطيع الدارس أن يمسك بزمام المرحلة التاريخية ويتفرع إلى فرضيات أخرى يجد صداها فى نصوص المرحلة الأولى . أما فى المرحلة الثانية فالنقد فى حاجة إلى التأويل والغوص فى الرمز وإلى الدخول فى بعض الدراسات الميثولوجية ولأن معظم النقاد العرب باتو يتعايشون من كتابة المقالة أو الدراسات القصيرة فقد أخذوا يستسهلون الكتابة التى لاتستنزف الكثير من الجهد وهذا أمر طبيعى حين تعيش فى عالم يدفع لك مقابل الدراسة المنشورة فى الصحف والمجلات ويقبض منك الناشر مقابل كتاب فكرى نقدى كبير!

– عودة إلى دستويفسكى واريك فروم وفرانز فانون ، هل مازلت تعتقد أن المؤثرات الخارجية (القمع تحديدا) تأخذ طريقها للفعل فى الواقع والتأثير على الشخوص أفرادا

وجماعات أما أن شيوع الديمقراطية إلى حد ما وشعارات المجتمع المدنى الحديث حد من هذه الظاهرة ؟

مؤنس : (شوف) فى المرحلة الأولى بعد الاستقلال كانت الأضرار تلحق بالسياسيين المحترفين سواء كانوا بالمعارضة أو بالسلطة ، لكن فى أواسط السبعينيات وحتى نهاية القرن المنصرم صار الإنسان العادى ، الإنسان العربى المحايد الذى يسعى إلى قوت يومه فقط والذى ليس له علاقة بالسياسة ، صار ضحية رغم أنفه ، ففى لبنان قامت حرب أهلية استمرت ١٧ سنة ، لم تترك صغيرا ولا كبيرا ولا امرأة ولا طفلا ، مهما كانت طائفته ، معتقده ، أو حزبه ، ومهما حاول أن يبتعد عن حلبة الصراع ، هذه الحرب تركت آثارا نفسية عميقة عند جيل بأكمله . ثمة جيل كبر في الحرب . وخذ مثلا الشعب الفلسطينى فى الضفة والقطاع منذ الثمانينيات وهو يقوم بانتفاضة تلو الأخرى ، والذين يقتلون مواطنين عاديين ، طفل ذهب لشراء لعبة ، وآخر عائد من عند الحلاق ، وامرأة تنشر غسيل أمام بيتها ، ورجل ينام فى فراشه .. إلخ ، ثم أنظر الحصار على الشعب العراقى وأثره على الناس ، واحتلال الكويت ، وحصار ليبيا والسودان ، ومجازر الجزائر .. هذه أحداث تترك أثرها على العرب أينما كانوا وعلى كل شخص على حدة ، وكلها مؤشرات على اتساع نطاق التشوه . لم يعد التشويه الجسدى والقتل والاعتقال والضرب هو السبب المباشر للتشوه ، ولم يعد التشويه النفسى مقتصرا على اللاعبين فى الحلبة السياسية ، وإنما صار ثقل الواقع وثقل القطب الواحد وضغوط العولمة تنال الأفراد والزوايا المعتمة والمتناقضة فى ذات الفرد الواحد .

– هل الأدب هو الحل ؟

مؤنس : الفن وجد للصدق مع الذات ومع تشخيص الحالة وهذا جزء من استقصاء الجوانب المعتمة والمترفة والخفية فى النفس البشرية فى المجتمعات الإنسانية التى على الأدب والفن معالجتها ، هذا المواطن الذى يريد " سلته بلا عنب " صار هدفا وهو لايتوقع ذلك ، لم يكن المواطن العراقى البسيط فى عمله أو فى حقله أو فى قاربه يتوقع أن تحل به كل هذه المعاناة ، لقد اتسع تأثير المعاناة أفقيا وعموديا ومحوريا .. هذا يذكرنى بمقولة لستالين ..

(تناول مؤنس ابريق الشاى وقال هلا سخنه ؟) ضحكت وقلت ..

– ما علاقة ستالين ؟

مؤنس : يقول ستالين " الجرح النفسى والغضب الصريح عند عابر السبيل الذى لا علاقة له بالمظاهرة التى يقمعها القوازق ، أعمق وأكثر أثرا من إحساس البلشفى لأن البلشفى خرج

للشارع وفى حسابه أن يقمع ، هكذا يبدأ الإحساس العام بالغضب ".

(استراحة وقهوة جديدة ، واعتذار من مؤنس لأنه لن يرافقنى لنعايد على الدكتور خالد الكركى : قل له معى إنفلوانزا نفسية وهو يفهمنى).

– نحن القريبون منك تابعنا مقاطع من نصك الجديد الذى تكتبه الآن ، وأنا ألمس بوادر مرحلة ثالثة جديدة فى كتاباتك .. هل تود أن نتحدث عن هذا المشروع ؟!

مؤنس : أشعر منذ فترة " كما تعرف " بنداء داخلى يقول لى : اكتب سيرة جوانية، وأنت تعلم أن السيرة الذاتية بمعنى الاعترافات ، غير موجودة فى الأدب العربى المعاصر ، ربما باستثناء حالة محمد شكرى من المغرب .

كان هذا النداء منى أن أفضح الحجاب الذى يجلل حقيقة حياتنا فى الوطن العربى .

هذا مشروع يتطلب جرأة عالية ، وشجاعة أدبية لاتعرف التردد ، وصدقا مع الذات أولا ، لهذا ولربما لأول مرة ، سوف أكتب عن دور النساء مثلا فى حياتى ، وكيف كان من حقى أن أكشف حقائق تتعلق بى شخصيا ، فليس من حقى أن أكشف الحقائق التى تتعلق بالطرف الآخر ، لذا فإن لغة المشروع الجديد ، أقرب إلى لغة النص منها إلى لغة الرواية.

هو ليس رواية .. ولكن ، ولنرى ماذا سيكون عليه الكتاب حين يكتمل المشروع

– هل نستطيع وصفه ، نص من طرف واحد ، راو واحد ، .. مركز واحد..

مؤنس : أشعر أن النص الذى بين يدى ليس لغة فقط ، ولاشخصيات وأحداث .. إنه حضور مميز للحياة الجوانية بخصبها وتلعثمها .. إنه كما المرأة ، ليس جسدا أو روحا فقط بل حضور فاعل مدهش يسير على قدمين نحو غوايته الخاصة .. الحب !

قاطعته

– الحب من طرف واحد طبعا

(ضحكنا)

مؤنس : (شوف) الحب بين طرفين لايكون متساويا أبدا ، ونحن لا نتحدث عن ميزان البقال ، .. نتكلم عن بشر أحياء لهم نفوس عصية على القياس والتقويم، مطواعة للتخمين والتخيل ، لقد وصف العرب الحب بعشرات الأسماء تتدرج من المودة إلى الهيام ..(ـ صمت)

صار الطقس جميلا ، هل نفتح النافذة : الشمس بدأت تنسحب

نعود إلى موضوع الحب ، آمنت عبر رحلتى الطويلة بأن الحب بين طرفين موجود ولكنه لايمكن أن يكون متساويا .

علقت : " ولن تعدلوا "

قال مؤنس بنبرة توكيد.

– لايمكن أن تكون علاقة بين أى طرفين متساوية تماما ، هذا وهم ، انظر إلى التدرج فى علاقات الحب ابتداء من الحب من طرف واحد وانتهاء بالحب العذرى ماذا ترى؟ .. قد يوجد الهيام مقابل العشق وقد يوجد الوله عند هذا والتدله عند الطرف الآخر ، فكل درجات زلازل الحب موجودة على مقياس (ريختر) ولكن لكل عاشقين مقياسهما الخاص ولكل طرف (رختره)! (ضحك)

بالنسبة لمقياس ريختر عندى فانه يرتاح للحب من طرف واحد .. سواء كنت عاشقا أو معشوقاً !

– طبعا ، الأفضل أن تكون معشوقا.

مؤنس : ياسيدى .. مش فارقة كثير . بدك قهوة كمان ؟

– ألا تعتقد أنك تورطت بندائك للمرأة كى تكون حبيبتك من طرف واحد ، وهتافك فى وجه الدنيا : غرى غيرى.

(ضحك وكلام خارج التسجيل)

مؤنس : هذا عن المرأة المحبة ، ماذا عن الدنيا الغرورة ، المرأة والدنيا صنوان .. (ضحك) طبعا من وجهة نظر الذكورة ، .. أحيانا تكون المرأة هى الحياة..

– تقصد الدنيا بمعنى العيش ، والحياة بمعنى استمرارية تدفق العطاء ، والتوحد بمعنى الوجود ؟

(صمت)

مؤنس : تعرف أننى مررت بتجربة تصوف حقيقية .. إنها من أجمل التجارب التى مررت بها فى حياتى ، لكن التصوف الكامل بحاجة إلى الجهاد الأكبر (مجاهدة النفس) وأنا لم أستطع مع درجاته العليا صبرا ، فأنا رجل غير صبور (وبصلتى محروقة) .. ولذلك عندما عدت من رحلة التصوف إلى زخرف الدنيا أطلبه ، وإلى متطلبات النفس الغرورة ، بدا لى أن الأقدار صدقت زهدى أو أن زخرف الدنيا استسلم لجفوتى ، فأمعنت فى حرمانى أو أمعنت فى معاقبة نفسى حتى من الحد الأدنى لشهواتى المتواضعة .

– الشهوات بحاجة لهمة ياصديقى وأنت أعلنت نفسك شيخ التنابل ! لاتلم الأقدار .

(بابتسامة مضيئة تابع مؤنس حديثه)

يعنى ليس إلى درجة الجفاء والجفاف .

(صمت)

(مؤنس مبتسما ونظراته غائمة)

أقر واعترف أن تجربتى فى الحب علمتنى أن الحب والحرية ضدان ، وكل واحد منا حر فى تجربته ، بمعنى أنى غير محتاج لدروس ومحاضرات عن تكامل الحب والحرية . الحب بين طرفين يحتاج إلى تنازلات من الطرفين والتزامات ، وتبعات ، وقيود ومسئوليات . وهذا يقودك إلى فقدان جزء كبير من حريتك الشخصية ، لذلك يميل مزاجي المتقلب إلى النظر إلى الحب وكأنه يليق بالتوازى مع الحرية ويستحق بعض التنازلات ، وأحيانا يميل مزاجى إلى العكس ، إلى تقديس الحرية ، فأرى أن الحرية أعظم من الحب ، وبما أنه لاغنى عن الحب ألجأ إلى الحب من طرف واحد ، فأعفى حبيبتى من أى التزام حيال مشاعرى الخاصة . وإذا حدث العكس أى أن تحبنى هى فأننى أعفي نفسى من أى التزام حيال مشاعرها نحوى.

يا أخى المواعيد والتحضيرات والارتباكات .. قصة أنا فى غنى عنها.

– وماذا عن الأصدقاء .. أليست الصداقة مكلفة أيضا ؟

مؤنس : الحق ، أن الأقدار كانت كريمة معى على صعيد الأصدقاء ، وسأبوح لك بشىء بمناسبة هذا الحديث :

لولا الدور الذى يلعبه أصدقائى كصمام أمان لأمزجتى الحادة والمتقلبة ، وتقلبهم لى فى كل حالاتى وصراعاتى الجوانية ، لما كان لمؤنس الرزاز أى وجود اليوم ، ولما كان هذا الحوار الجميل أن يكون.

ملف

رحلة أخيرة

سعود قبيلات

عندما رأيت جثمانه يخرج من المشرحة محمولاً على الأكتاف ، مشيت مبتعداً عن المكان ، لكننى لم أستطع منع نفسي من الالتفات إلى الوراء قليلاً دون تركيز ، وعندئذ بدا لى الجسد المحمول أقل وزنا وطولاً مما كان عليه فى الحياة ، وكان ذلك مخالفاً لفكرة حملتها منذ طفولتى فى القرية ، حيث كنت أسمع أن الناس يزدادون طولاً بعد موتهم ، وشعرت بالحزن والأسف لأننى لم أحدثه عن هذه الفكرة ولن أتمكن من ذلك بعد .

وضعوا الجثمان فى سيارة نقل الموتى وأغلقوا بابها عليه ، أما هو ، فقد صعد إلى جانبى فى سيارتى ، ورحنا نتبع السيارة التى تقل جثمانه وهى تغادر مستشفى الجامعة الأردنية وتنحرف باتجاه شارع الصحافة.

رن هاتفى المحمول ، فإذا هاشم على الطرف الآخر يسأل : أين وصلتم ؟

قلت : عند جسر الجامعة ، أين أنت ؟

قال : عند مسجد الجامعة ، سأكون وراءكم بعد قليل .

كان قادما من إربد.

تجاوزنا جسر الجامعة ونحن ، أعنى مؤنس وأنا ـ صامتين ، ومن حين لحين كنا ننظر إلى الوراء فنرى موكب السيارات الطويل يتبعنا ، ثم نعود لننظر إلى الأمام من دون تعليق ، وفجأة راح مؤنس يستذكر بعض المقاطع من مخطوطة (الاعترافات) كما كتب عنه وعن نفسه :

" آخر العنقود ، هذا الكتاب ، آخر المحطات وآخر من انتحر دون تخطيط ولاموقف ولا ذريعة ".

" منفستو الخارجى ـ بيان الخارجين "

" أيها الخارجون عن قانون الجاذبية أقيلو عقولكم واحتفظوا بخيالاتكم .. تعالوا نؤسس شلة فى الخواء وللخواء ، تعالوا نقطع أصابعنا عندما تقبل المرأة الزنبقة أو السيدة الباذخة أو باء أو سين أو لبنى أو المرأة القنبلة أو مارغريت .. أيها الخارجون على قبائلكم تعالوا نخرج من جلودنا .. خارجون .. خارجون .. خارجون .. وباطنيون أيضاً !

تعالوا نتظاهر بلا مطالب ولا شعارات ولا أهداف ولا هتافات ، دعونا نخرج فى مسيرة كبرى عن مسار الكواكب ، نقلع حين يهبط الآخرون . ونحط حيث يحلق غيرنا ، تعالوا نبايع بالكوانين فيلسوف فوضانا ، فلنرفض المؤسسات والدوائر والمراجع والطوابع ومدير قسم اللوازم بما نحن جماعة لاتلزمها الأشياء" كنت أستمع إليه وأنا أركز نظرى على السيارة التى تقل جثمانه كى لاتضيع منى فى زحمة السيز ، ومالبث أن انتقل إلى تلاوة فقرات من غزلياته بأزرا " آلهة الموت فى الحضارة الرزازية التى سادت وبادت فى بادية الشام ، بحسب قوله "

" أزرا ..

مأخوذ بك ، مأخوذ بقميصك الدموى ..

بدهاليزك المكيفة الهواء.

ثمة جحيم مالح وفردوس رمادى على الأرض ، والعلاقة بينهما جدلية ، أنت ، يا أزرا ، سكرة خضراء ..

أزرا .. من غيرك يقبل بى كما أنا .. بكامل عيوبى الفاضحة بلا قيد أو شرط

عيوبى المشعشعة بشاعة

عيوبى الكافرة المكفهرة المعشوشبة أدغالاً وعتمات..

أريد ياأزرا ملجأ سرياً تحت الأرض كى أمارس موتى بلا طموح ، أرغب فى قلعة تحت الأرض بعدما انهارت قلعتى الجوانية الحصينة ، حين كبا حصان طروادة .

قلعة ضيقة خائفة سرية تحت الأرض أنظم بها حركة موتى المقاوم ، من تحت .

سوف أقوم.

الخط البيانى ينحدر .. نحو ماذا ؟

نحو الحضيض طبعاً.

القعر مريح ، يغدق على ظل اليأس وطمأنة الاستسلام.

هل أنا مسجى بلا مقاومة .. وأزرا تغطينى ببطانية من القبلات ، على قشعريرتى "

كانت الجنازة قد انحرفت عند دوار عبد الناصر باتجاه الدوار الثالث ، فى هذا الأثناء كنت

أتذكر دعواته الملحة لأزرا طوال السنتين الماضيتين لتأتى سريعاً وتأخذه :

" أزرا

الدنيا امتصت رحيق ماتبقى من قوتى ، اقبضى على روحى وهى فى ذروة تألقها ، اقبضى عليها وهى ماتزال بطلة الحلبة .. لاتمهليها فينهشها جرذ العفن .

أزرا .. تعالى ، لاتردى على سميحة ، لاتنخدعى بهاشم وسعود ويوسف ، اقطفينى من العدم الشاحب وخذينى إلى الغيب المتفتح.

اننى خطأ شائع ، مثل الحلاج وفان كوخ ، وبناء على ماتقدم ذوبينى بدروس الصرف نحو المجارير التى ابتلعت فرج الله الحلو .. وصرفته نهائيا مادام خطأ فاحشاً فى عيون عبد الحميد السراج ، عميد الصرف السيبويهى.

أزرا إننى خطأ فاحش فاشطبينى ، صححينى بحربة ممحاتك ، أعوى عواء ذئب مثخن ، أناديك : أزرا تعالى ، لقد بلغت أرذل العمر بعد نصف قرن فقط من الطراد على هذه الأرض اليباب المسيجة بأفق من غبار فقدان السوية وعوسج العصاب ، والذئب المثخن بالمرارة النازفة السوداء .. خطر.

تعالى .. أمرك أمر الضحية للجلاد ، أمر الأرض للشمسي التى تدور حولها بالرغم من أنفها .. عاشت الحرية ماجدة عربية خالدة !!!

أزرا لا أتمنى سوى الموت ، اخطفينى خطفاً سريعاً لئيماً ، اقبضى على روحى غدراً ، كونى طعنة مباغتة غادرة فى الظهر ياحبيبتى ، عند ذاك المنعطف ، حيث لا أتوقع مديتك الساطعة سراً.

تعالى العبى معى الورق ، ولتغازل قدمك اليسرى قدمى اليمنى تحت الطاولة ، بينما الشركاء من اللاعبين يمضون فى غيهم الأبله ، وهناك فى ظل سرير اللعب المشترك وفراش التواطئ الغرائزى حيث فحيح المرأة يوقد لهاث الرجل اطعنينى " كان هناك ثمة مصور تليفزيونى يظهر من حين لحين على الرصيف موجهاً كاميرته إلى السيارات المنتظمة فى الجنازة ، وعندما هبطنا باتجاه رأس العين ، كان المصور قد انبطح أرضاً وراح يصور السيارات من الأسفل ، فأفهمته بتعابير وجهى إننى مثله مندهش من الأمر ولا أملك جواباً ، عندئذ عاد إلى استذكار مقاطع أخرى من اعترافاته " عبور هذه الرحلة من المهد إلى اللحد مجرد عبور بأدغال أحزان تتفتح فى الربيع المقبل ابتسامات وقوافل ، عبور ، مجرد عبور له نكهة حبور بسيط ملتبس ، عبور على جسور بين العدم والخلود "

وراح يمسح شاربيه براحته كشأنه كلما أخذه الشرود أو انهمك فى التفكير ، وكان شارباه الطويلان قد تعرضا لمحاولة تشذيب بيد غير محترفة ، حيث بدت بعض الشعيرات أطول من سواها ، وكان على هذه الحال عندما رأيته لآخر مرة قبل غيابه الأبدى بنصف ساعة ، وفكرت

بأن ملامح الطفل قد أصبحت أكثر وضوحاً فى وجهه بعد أن أصبح شارباه رفيعين ، ولم أعرف لماذا تحدث كثيراً حينها واستذكر العديد من الأصدقاء ، وبعضهم لم يكن رآه أو تذكره منذ مدة طويلة ، وفجأة انتبهت إلى صوته يتلو مقاطع أخرى من الاعترافات ، وكنا أنذاك قد بدأنا نصعد باتجاه أم الحيران :

" ما أروع الحياة ، الحياة احساس بنداء حرية مطلقة ، الدنيا تتحكم بها قاعدة الضرورة ، الحياة نطاق الخيارات ، الدنيا مواقع الحتم ، الحياة خروج عن القاعدة وعليها، الدنيا انضباط المضطر أو المذعن "

وصلت الجنازة أم الحيران ، وبينما كانت تقترب من المقبرة ، راح مؤنس يتلو المقطع التالى " حيواتنا كالسحب تتشكل فى دار قاضى القضاة لتنحل وتنقشع عند الأطباء ، بين سلطة القاضى الصارم وامتيازات الطبيب المهرج ، دعونى أمر بأبهة العاطلين عن العمل ، أقصد المتسكعين النبلاء ، والمشردين جراء موقف فلسفى ، أقصد بنى الخيبة المبهجة "

وقفت سيارة نقل الموتى أمام مسجد المقبرة ، وأنزل الجثمان منها ، وأدخله المشيعون المسجد للصلاة عليه ، بينما وقفنا ، مؤنس ويوسف الذى ترجل من سيارة أخرى ، وأنا على رصيف الشارع المار من أمام الجامع نثرثر على سبيل تزجية الوقت .

وعندما طال الأمر قليلاً اقترح مؤنس أن ندخل المقبرة بانتظار دخول الجثمان ، فما أن هممنا بالدخول حتى عاد إلى تلاوة اعترافاته " فى رحم أزرا سلامى ، تنتظرنى سكينتى المرتجاة ، فى أحشاء أزرا سلامى الوحيد ونهاية مسلسل الزلزال الدرامى"

وقال يوسف أنه قلق من وقع الخبر على سميحة عندما تتلقاه الآن عبر الانترنيت وهى فى أمريكا.

أبديت موافقتى على كلامه بهزة من رأسى ، غير أن مؤنساً نظر إلينا والدهشة بادية على وجهه ، وقال : كنت أتخيل بأننى كنت فى منتهى الوضوح عندما رحت أقرأ لكم خلال السنتين مقاطع من اعترافاتى أغازل فيها آلهة الموت وأطلبها بالحاح.

قلت : أقول لك صراحة : كنت أعتقد بأن هذا لم يكن أكثر من شكل من أشكال الاحتجاج على الأحوال المتردية والأحلام المتكسرة والطموحات المتلاشية ، حسب قال مستغرباً : أهذا ماكنت تظنه حقاً ؟؟

قلت : نعم ، فلم أكن لأصدق أن أحداً يحب الموت ، بل ويعشقه إلى هذا الحد ، كما أننى كنت ألحظ نوعاً من التحفظ فى نبرات صوتك وأنت تقرأ هذه الاعترافات.

قال وعلامات الاستغراب لاتزال بادية عليه : أتريد أن تعرف ماحقيقة ذلك بالضبط ؟

قلت : نعم .

قال : سأتلو لك إذاً مقطعاً من اعترافاتى.

وبينما كنت أنظر إليه مصغياً ، قال :

"أغنى لك ياأزرا بصوتى المنكر وإصغاء أذنى الموسيقية.

أزرا .. لمن أروح ؟

أحبك حب مرتاح ترتعد فرائصه خجلاً لا حوجاً ، أخجل من أصدقائى وأحبائى الذين يشدوننى من ياقة معطفى بعيداً عنك ."

وصمت قليلاً، ثم عاد فكرر :

" أخجل من أصدقائى وأحبائى الذين يشدوننى من ياقة معطفى بعيداً عنك "

وعندئذ شعرت بالأسى والأسف العميق لأننى لم أفهم الأمر على النحو الصحيح فى الوقت نفسه .

وراح هو يواصل تلاوة اعترافاته :

" إننى انتفض خوفاً ، لاثورة أو تمرداً ، حبك ياأزرا ، مريع ومروع ، لكنه يتميز بطعم الرهبة ، ولون الجرأة وملمس الحذر ، ورائحة الأمومة "

سرنا عبر ساحة واسعة داخل المقبرة ،متجهين إلى سور داخلى واطئ ، عندما وصلناه وقفنا عنده واتكأنا عليه ، ورحنا نراقب الآخرين من المشيعين الذين أخذوا يتكاثرون فى الساحة .

قال يوسف : كان الناس فى زمن آخر يسمون هذه المقبرة مقبرة الشهداء ، أما الآن فهى مقبرة أم الحيران.

لم يعلق أى منا على ملحوظته ، ولم يضف هو أى كلمة أخرى ، وفجأة تذكرت باندهاش مقطعاً من الاعترافات يقول :

" أعرف أن محطتى الأخيرة دانية ، بوسعى أن أرسم بارود مرساتى وعباءات سوداوات فيهن نساء ، بوسعى أن أرسم المشهد تشكيلياً !!!

وبدا لى كما لو أننى أقرأه لأول مرة ، وعندئذ نظرت إلى مؤنس نظرة مليئة بالمعانى ولم أقل شيئاً.

ومالبث الجثمان أن دخل من الباب الخلفى للجامع محمولاً على الأكف والأكتاف فاحتشد المشيعون خلفه ، ورحنا نحن نمشى خلفهم باتجاه المثوى الأخير ونحن صامتون ، وفى هذه الأثناء كنت أتذكر كيف أننا (هو وأنا وأصدقاء آخرون) قد مشينا فى الممر نفسه قبل أقل من عقدين من الزمن ، مشيعين جثمان والده الدكتور منيف الرزاز إلى المثوى نفسه.

بعد بضعة عشرات من الأمتار توقف الحشد فتوقفنا ، وتولت الأكف المرفوعة إدخال الجثمان إلى حجرة ضيقة ، فشعرت بحزن مضاعف ولم أتمكن من حبس دموعى ، فى هذه الأثناء ظهر هاشم بالقرب منى ، ألقى تحية مقتضبة ووقف صامتاً يراقب المشهد.

ومال يوسف علينا وقال هامساً : أى مقابر هذه التى تتخذها بعض العائلات فى العاصمة مستقراً أخيراً لموتاها ؟! مقابر القرى أفضل بكثير ، وهى فى رأيى أليق بمبدع كبير عاشق للحرية من زنازين الموتى هذه ، هناك يتصل القبر مباشرة بالهواء الطلق والفضاء المفتوح ، ويلتحم الجثمان مباشرة بالتراب ، فتتاح له الفرصة الكاملة للعودة بصورة سليمة إلى مكوناته الطبيعية.

أحنى هاشم رأسه موافقاً ، كذلك فعلت أنا .

وفجأة انتبهنا على صوت مؤنس يتاو مقطعاً غريباً من اعترافاته :

" الدود لذيذ طريف ، ثمة دودة تكايدنى ، تثير غيظى ، تقول وهى تدب على خيالى : إلى اللقاء .

أحبها ، أرغب رغبة عارمة فى لقائها الليلة.

أزرا .. حققى أمنيتى في أن أشرب كأسها الآن ، نضطجع فى قبر واحد ، أنا على التراب وهى على صدرى ، بالخفة دمها ، تدغدغ ماتحت الابط ، ولا تضحك.

الميت يضحك سراً "

انتبه إلى نظرات الاستغراب والفزع فى عيوننا ، فقال بلهجة مرحة : أتعلمون أننى دعوت عرار وتيسير للقاء هنا فى أم الحيران للاحتفال بهذه المناسبة ، ستجدون هذا فى اعترافاتى . لكنه لم يخبرنى أنه فى خطاب الدعوة هذا خاطب عرار وتيسير قائلاً (وربما شاكياً):

: الحق أقول لك ياعرار : سعود قبيلات يمشى أما أنا فأجرى ، انقطع نفسى ياتيسير ، هل مسدسك بدولاب أم بمخزن ؟"

اكتشفت هذا لاحقاً عندما قرأت الاعترافات ، وعندها أيضاً ، رأيت حجم ماكتبه فى وقت قصير ، فاكتشفت أننى تعرضت لأكبر خدعة من مؤنس الرزاز ، فقد أوهمنى أنه أكثر كسلاً من (ابلوموفوف) الأمر الذى أهله بغير وجه حق لترأس جمعية التنابلة طوال حياته ، بلا منازع ، وكان يؤكد أنه الزعيم الوحيد الذى أمن شر الانقلابات ، لأن من يفكر فى ذلك يكون فى تلك اللحظة قد فقد مبرر انتظامه فى الجمعية .

أما لماذا دعا تيسير وعرار ولم يدع رفاقه فى عصابة الوردة الدامية ، فقد اكتشفت السبب أيضاً عندما قرأت الاعترافات ، فهو يقول :

" المهم أننا كلنا نعشق الحياة ، معاً، لكننى الوحيد فى عصابة الوردة الموله بأزرا ، تلك التى صدرها الناهض جواز سفرى إلى ماوراء العابر العارض ، تلك التى يفترض الناس أنها شاحبة وهى تضج حيوية على إيقاع حماسة متقدة "

ويضيف ملاحظاً :

" خداها ليسا شاحبين ، خداها متفتحان ! "

وانتبهنا فجأة فإذا صف طويل من الناس قد وقفوا يتلقون العزاء ، عرفت من بينهم شقيقه عمر فقط ، وأردت أن أقول شيئاً ليوسف غير أنني لم أجده ، ففهمت أنه انسحب من دون أن نفطن ، وقال مؤنس وقد لاحظ هو الآخر غياب يوسف : دعونا نلحق بيوسف، سيكون أكثر من يفتقدني من أصدقائي.

مشينا هو وهاشم وأنا ، فعبرنا الممر ثم الساحة ، وإذا بنا سريعاً خارج المقبرة ، وإذا بنا نرى يوسف يسير وحيداً وهو يعض على غليونه.

ناديناه فوقف ينتظرنا ، ومن هناك انطلقنا إلى بيت مؤنس ، حيث وجدنا سرادقاً كبيراً قد زقيم بقربه ، نزلنا من السيارة واتجهنا إلى السرادق ، لكننا فوجئنا بمؤنس يتخلف عنا وينادينا إليه فعدنا ، وقلت له : مابك؟

قال : إلى أين أنتم ذاهبون ؟؟

قلت : إلى بيت العزاء ، كما ترى .

قال : وماذا ستفعلون هناك ؟

قلت : عجيب أمرك !! طبعاً سنتقبل العزاء ونجامل المعزين .

قال : دعكم من هذا لنذهب إلى شرفة بيتي فنجلس هناك ونتحدث عن أي شئ ، عن الراقص المجنون نيجينسكس ، مثلاً واعترافاته الغريبة في المصحة ، أو نسمع شيئاً من غناء أم كلثوم أو فيروز ، وسأقبل على مضض أن تشربا أنتما (وأشار إلى هاشم وإليّ) شيئاً من الشاي ، أما أنا ويوسف ...

وهنا قاطعته قائلاً : لكن هذا لايجوز فالواجب يدعونا للذهاب إلى السرادق.

قال : كأنك نسيت أنني لطالما قلت : لا أريد أن يمشي أحد في جنازتي ، بل أكثر من ذلك ستجدون في اعترافاتي مايلي:

" سأجلس على شاطئ البحر الميت وقد عن لي أن أصدر منفستو يعفي أصدقائي من واجب المشي في جنازتي حين أموت "

وصمت قليلاً ثم أضاف : هل قصدت حين أعيش ؟

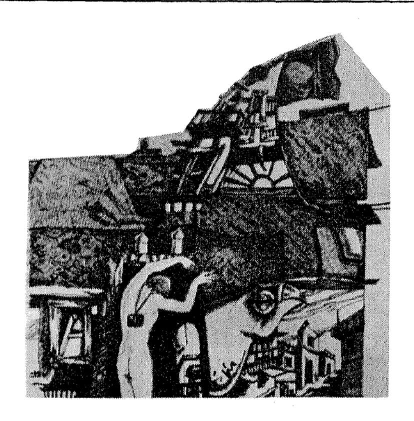
قلت : اسمع ، يبدو أنك أنت من نسي أنه قد مات وأن كثيرين مشوا في جنازته .

قال : لم أدعهم ، ربما كان والدي هو من دعاهم.

قلت : ربما فعل مع بعضهم ، ولكني على يقين من أنك لو لم تدعهم أنت أيضا لما جاءوا

قال : ومع ذلك فلن تستطيعوا اقناعي بالذهاب إلى هناك ، ثم أنني ميت يا إخوان ، والميت كما تعلمون لايتقبل العزاء بنفسه .

قال هذا وسار ، فوجدنا أنفسنا ، كما يقال ، تحت الأمر الواقع ، وسرنا معه ، وفي هذا الأثناء راح يتلو من الاعترافات المقطع التالي:



" المهرجون فى الجنازة ، المهرجون فى دار عزائى ، مهدى لعبة مهرج ، لحدى لهو مهرج ، الرحلة بينهما كرنفال تنكرى وموسيقى صاخبة ، وبحارة سكارى وغانيات يبعن الهوى والبلالين ، فليذهبوا جميعاً إلى الجحيم "

دخلنا من الباب الخارجى وصعدنا إلى الشرفة بين أشجار الأسكدنيا ، غير أننا لم نجلس هناك ، فقد كانت مكتظة بالنساء المنتحبات النائحات ، تجاوزناهن ودخلنا من بوابة البيت إلى الصالون ، وفجأة لمحنا أم مؤنس جالسة على مقعدها المتحرك ، فتوجهنا إليها ، وعندما وصلناها انحنيت عليها وقبلتها على خديها ، ثم استدرت وفعل هاشم ويوسف الأمر نفسه ، ثم وقفنا إلى جانبها.

نظرت إلينا وهى تبكى : وينه مؤنس ؟

وعندئذ نظرت إلى حيث من المفروض أن يكون مؤنس فلمن أجده ، فاستدرت خارجاً وأنا أبحث عنه بنظراتى ، ونزلت الدرج ثم خرجت من بوابة السور ، ورحت أنظر عبر الشارع الشارى المحاذى ، فإذا بى أراه يجرى مبتعداً ، للمرة الأولى أراه يجرى ، فرحت أمشى وراءه مندهشاً وأنا ألهث تكاد تنقطع أنفاسى من شدة المشى .

ملف

رصد الشظايا العربية

سميحة خريس

برحيل الروائي مؤنس الرزاز ، تفتقد الساحة الإبداعية الأردنية علماً وقامة عالية ، وتتحسس تفاصيلها بكثير من الهلع ، فالأسماء التي أسست لهذا المشهد الروائي بالتحديد ، معدودة ، وغائبة بفعل الموت المبكر ، غالب هلسا ، تيسير سبول ، مؤنس الرزاز ، أسماء حصدها الموت مبكراً ، ولكنها تركت آثارها في جعل المسيرة الروائية الأردنية خاصة ذات طعم مميز.

أحد وخمسون عاماً عاشها مؤنس ومالبث أن طوى صفحة حياته ورحل ، تاركاً وراءه خمسة عشر عملاً مطبوعاً ، ومخطوطاً هو مفاجأة على صعيد الإبداع ، وتاركاً الكثير من الشجن ، ذلك أن مسيرة هذا المبدع بالذات لايمكن فصلها عن الجانب الإنساني الذي كان أثر عميق ، بحيث يمكن القول إنه واحد من قلائل قادر على هذا التوازن العجيب ، وكأنه كان الظاهرة الأكثر قدرة على تجميع قلوب العباد حوله ، ولكن الذين عرفوه وأحبوه باتوا

اليوم أكثر دهشة من ذلك الأثر الأدبى الذى يتركه المبدع ، كأنما كان لحضوره الإنسانى الحميم وهج يغيب المبدع ، كأننا نعيد اكتشافه مجدداً.

أبدع الرزاز قصصياً وروائياً وصحفياً ، وتمكن من اجتراح نهج رزازى ، وأسلوب خاص، لعله يقوم على عناصر واضحة وضوح الرجل نفسه ، فمسيرة حياته التى اغتنت بتجربة سياسية مبكرة ، وقريبة من سدة الحكم ممثلة بوالده أحد أهم أقطاب حزب البعث فى الأردن ثم سوريا ثم العراق ، الذى بدأ معارضا فى الأردن ، ثم حاكما فى كل من سوريا والعراق ، حاكم أقصاه رفاق دربه ولاحقوه . كانت هذه التجربة التى عاشها الفتى مؤنس تحفر عميقاً فى وجدانه ، وتعلمه أبجديات البشر ، كما تعلمه مخاتلة الأفكار ، وتفتح فى روحه مساحة واسعة وشاسعة للقبول بالتعددية ، كما تنبهه إلى مواقع الظالم والمظلوم ، الحاكم والمحكوم ، فى خضم هذه الأمواج العاتية يكتشف الفتى أنه مبدع قادر على التقاط التجربة وتحويلها إلى فن.

عاش الرزاز ملتاثاً بالهم القومى ، قادراً على تحليل تلك التحولات والانقلابات وارتباكات السياسية التى تعترى عالمنا العربى فتشظيه ساحبة فى أذيالها إنسان مهموم واقع تحت ذات التشظى ، لكنه فى إطار الحلم الأكبر والمحاولة الأخيرة للوقوف على القدمين يشارك فى الحرب الأهلية اللبنانية ، من خلال علاقته بمنظمة التحرير وفصائلها وتنظيماتها، تلك التجربة لن تنجح ، بل وتركت مزيداً من الجراح ، ليعود إلى عمان (١٩٨٢) فاتحاً صفحته على الثقافة ، وفى تقديرى بأن الوسط تجنى عليه وظلمه حين دفعه إلى التزام الدور المطلوب منه ، والذى هو دور مستمر لأحوال بات يدرك أن خللاً أصابها ، وما من علاج لها ، فشكل وترأس حزباً ديمقراطياً، كما ترأس رابطة الكتاب الأدرنيين ، وسرعان ماهرب من هذا وذاك ، متفرغاً لإبداعه ، ولم يكن تعيينه مستشاراً فى وزارة الثقافة إلا من موقع التكريم ، فشغل المنصب بشروطه الإبداعية العصية على الفهم ، والمقبولة من مؤنس وحده فقط ، وراح يثرى الساحة بأعماله الروائية ، كما يلتقى كل صباح بالمواطن فى مقال يومى فى جريدة الرأى ، وعندما تعجزه الكلمة كان يرسم.

هم العروبة بالحبر

تفصح معظم أعمال مؤنس عن حياته ، ولكنها ليست سيرة ذاتية بقدر ماهى شهادة مريرة على عصر مر بهول كبير فى زمن قصير للغاية ، فتعكس أعماله الأدبية كما مقالاته الصحفية مجمل التمزق الذى أصاب الأوطان والإنسان على حد سواء ، الغريب فى الأمر أن هذه

الصورة السوداوية تمت معالجتها بكثير من الضحك ، والعبث ، هناك ضحك كالبكاء ، هناك سخرية سوداوية ، وهناك جرأة فى كشف المستور ، انظروا إلى عنوان كتابه الأول (مد اللسان الصغير فى وجه العالم الكبير) لعل هذا اللسان ظل ممدوداً فى مجمل ماكتبه بعد ذلك.

عندما كتب (أحياء فى البحر الميت) بدا أن تجربته الفنية نضجت ، وانحازت إلى طرح المزيد من الأسئلة والمساءلة حول مفاهيم تمسك بتلابيب العالم العربى فتمزقه ، أسئلة الحرية والديمقراطية والنهوض ، ولعل الساحة الأردنية لم تعرف مثقفاً مثل مؤنس يطرح الأسئلة ويسأل نفسه حولها ويعتبر حياته بكل عناصرها ساحة لتجريب الإجابات، فإذا ماانتهى إلى حقيقة مؤداها بأن العالم العربى ممزق مشظى ، فإن ذاته انتهت إلى ذات النهاية، يقول (والروح تصطرع مع نفسها إلى جانب صراعها الخارجى مع الجسد ، والنفس تعذب نفسها ، وقبائل الحواس تشوش ذاتها ، وتقطع شبكة اتصالها بالبال ، والعقل يجلله حجاب ، والوجه يغطيه قناع رصين وقور .. هل بالغت ؟ أبداً ، واسألوا المثقفين والمبدعين العرب من دجلة إلى النيل ، ومن نهر الأردن إلى جبال الأوراس إلى القدس ، من المذبحة الجوانية إلى حمامات الدم فى شوارع فلسطين وجبال الجزائر .. ترى ، أما لهذا الليل من آخر ؟؟)

تحيلنا أعمال مؤنس الرزاز إلى حقائق مخيفة ، حقائق كانت بينة ، ولكننا أثرنا عدم الخوض فيها ، وحتى وهو يسجلها ، تغابينا ، لم نحدق جيداً بالنبوءة التى وردت فى روايته (متاهات الأعراب فى ناطحات السحاب) لقد رسم مؤنس فى منتصف الثمانينيات الحال التى شاهدناها مؤخراً فى ٢٠٠٣ ، رسم مستقبل العراق كما حدث بالتحديد ، تحدث عن المفتشين الدوليين ، والطائرات الأمريكية تجوس الفضاء ، تحدث عن البحث عن أسلحة خطيرة على البشرية ، تحدث عن لعبة النفط ، وغياب الديمقراطية ، وتحالف الطامعين ، وتخاذل الخائفين ، وعن القادة الذين يختفون ليهيئ الغزاة سواهم ، على شاكلتهم ، لهم ذات الملامح ، مكلفون بذات المهمة ، ألا وهى جر الوطن إلى الوراء .. بدا كما لو أنه يصوغ نبوءة ، ولكننا لانعرف إلا بعد وقوع الحدث ، أما هو فانه يعرف ، لقد قال فى اعترافاته التى لم تطبع بعد (أرى ما لا ترون ، أسمع ماتسمعون ، بوسعى أن أرسم المشهد تشكيلياً ، أرى نساء متشحات بالسواد).

أما اعترافات مؤنس الرزاز - سيرة جوانية ، كما أسماها فى بعض الشذرات التى نشرها قبل رحيله فى مجلة أفكار ، وجريدة الرأى وغيرها . فهى عمل جديد فى الأدب العربى بكل المقاييس ، كان صاحبه يدرك جدة العمل ومقدار التحدى الذى ينطوى عليه من حيث هو

تجربة طيران بلا أجنحة ، فى عالم شديد الصرامة والحدة.

الاعترافات وشهوة الموت

لايمكن أن نصنف مثل هذه الاعترافات على أنها سيرة ذاتية، وأن حملت من ملامح السيرة الذاتية الكثير، لهذا بلامعنى للحديث عن سيرة لم تكتمل ، أو عن أوراق اكتملت ، فما كتبه لم يبغ به تبسلسلا يفضى إلى نهاية ، بقدر ماكان تداعياً حراً محمولاً على حالته الذاتية ، أو كما أسماه قطعا عرضيا من مجمل هذه الحياة ، وهذا يعيدنى إلى مجمل كتابات الرزاز الذى كان يكتب فى رواياته سيرته الذاتية ، ملتبسة بسير الآخرين ممن يعرف ويراقب ، ولكنه أبداً لم يجنح إلى كتابة سيرة حياة بالمعنى المتعارف عليه ، بدا لى مؤنس فى اعترافاته مستقيلاً من مقارعة الحياة يحتمى بذاته، يتعرف عليها.، يحاول الهرب من العناصر التى دمرت جمالية أحلامه بالحديث عن الضربات الأشد قسوة ، النساء والإدمان (الكحولى) والسياسة ، ولأنه يدور كثيراً حول هذه العناصر فانه يكرر ويعيد ويزيد ، وفى تقديرى أنه كتب معظم اعترافاته فى مرحلة اللاوعى فكانت هذه هى العناصر الأشد إلحاحاً.

– التجربة السياسية التى انهارت تاركة وطناً منزوع الأحلام ، وأحلاماً متناثرة كالأشلاء فى كلمات من تبقى من الرفاق الذين ثابروا على الخوض فى تلك الأحاديث الموجعة وذاكرة مشحونة بصور بالغة الوضوح لحياة الأب المناضل الذى تعقبه الرفاق وضاقت به الدنيا .

– إدمان الكحول الذى حاول علاجه مراراً دون جدوى ، فتمكن منه ، وعذب روحه بإطلاق المدي لها حيناً وبسحقها حيناً.

– والنساء اللواتى يحبهن ككائنات تؤنث العالم بالجمال ولكنه يريدهن أمهات راعيات رحيمات ، ويريد نفسه معهن طفلاً محبوباً مدللاً معفى من المسئوليات والتبعات ، يحلم بامرأة تقبله على علاته ، ولعله وجدها على قدر مافى الأم ، ولكن شغفه بالحياة دفعه للبحث عنها فى نساء كثر ، احتمى مؤنس الطفل بحنان وتفهم أمه ، ثم شريكة حياته وحين رفعت هذه الرعاية لأسباب متفرقة كما هو شأن الحياة ، بحث عن طفولته فى شقيقه الأصغر الذى كان فى مقام الابن له ، لكنه اختار أن يجعل منه أباً فى السنوات الأخيرة التى احتاج فيها إلى عطف وحنان الأب . هذه الحالات الشديدة الشجن كانت محوراً يدور حوله فى الاعترافات ولايكاد يفلح بالتخلص منه.

هذه الأوراق (الاعترافات) هى مزيج فريد بين الحالة الذاتية ومايدور فى أعماق الرجل ، وفى عقله حول الحياة وحول نفسه ، ولايمكن القول بأن أهميتها تنبع من كون روائى مهم على

الصعيد المحلي والعربى قد كتبها ، ولا لتراجيديتها كون صاحبها رحل بعد أن سطر آخر كلماتها مودعاً ، بل الأهم من ذلك ماتحلت به الكلمات من شجاعة مذهلة ، لم يكن صاحبنا يشير فقط إلى عرى الإمبراطور والجمهور ولكنه أيضا يعرى ذاته بكل ما فيها ، لأول مرة يقدم لنا أديبا عربيا روحاً مقشرة تجار بالحياة.

ولم يكن هذا المشروع (الاعترافات) رد فعل على ظرف عائلى أو عاطفى ، ذلك أن البحث فى أوراق الراحل كشف عن كراسة مدرسية سجلت فيها بدايات الإقدام على المشروع عام ١٩٩٨ عشية سفره إلى مؤتمرالرواية فى القاهرة ، بدأ مؤنس يكتب ما أسماه حينها (سيرة جيل) معبراً عن رغبة حادة فى البوح ، ولكن متخذاً درباً أقرب إلى الاتزان ، بحيث كان هو الراوى لمجمل الأحداث والأفكار ، هذه البدايات كانت أكثر اقتراباً من مفهوم السيرة الذاتية ، ولكنها مجرد شذرات لايمكن التعويل عليها ، إذ من الواضح أن صاحبها نسيها بعد حين قصير ، كتب مايقارب خمسين صفحة (a4) ثم توقف ، وأرجح بأنه لم يجد فى هذا البوح المراقب الرزين حاجته ومبتغاه ، ولكنه عاد إلى مشروعه مسلحاً بجرأة عادية وحرية تامة وإصرار على بوح مختلف مغاير ، وذلك بعد أن وقر فى قلبه أن السفن كلها ، سفن حياته، وسفن أحلامه ، قد غرقت .

يقول الرزاز عن نصه ، (هذا نص كتبته بعدما خلعت عقلى كالعقال بكماشة المهدئ ،.. الحياة مختبر وأنا جرذ تجارب الكتابة .. استهلكت كميات عظمى من الكحول كى أنتزع الجرأة الأدبية الكافية على مثل هذا البوح أحياناً، وأحياناً كنت أنتزعها بعرى جسارتى الصرف).

على أن الاعترافات تكشف عن ولع المبدع بالجرأة الأدبية منذ عام ١٩٧٨ حين كان له حديث مع جبرا إبراهيم جبرا حول خلو الأدب العربى من فن الاعترافات ، ثم تكشف عن تأثره باعترافات القديس أوغسطين وجان جان روسو، ليؤكد أن الأول سحره والثانى ألهمه، وعلى حد علمى كان يبحث بجدية عن أى اعترافات صدرت لمفكرين وأدباء ، فقرأ رسائل فان كوخ إلى شقيقه وقرأ اعترافات محمد شكرى ، واختار بعد كل هذا أن يذهب إلى أقصى الأقصى ، ويغمس ريشته فى ذاته دون أى كوابح أو اعتبارات ، كان همه الوحيد الفن ، وتقديم عمل شديد الصدق شديد الوجع ، عمل يشبه أعماقه الجوانية ، أن الاعترافات التى بدأ كتابتها فى ٢٠٠١/١/١٥ تحدثت عن حدث مخيف يهمس فى أذنيه أن المشوار أوشك على النهاية، وينبئه بأن أمامه فى هذه الحياة عام واحد فقط ، فكتب (هذه رسالتى وقد أوشك قطافها .. إنه

خريفى الأخير ، عشائى الأخير)

تحمل أوراق الاعترافات دهشة عالية على صعيد الفن ، من حيث هى عمل نادر الوجود عربياً ، ومن حيث قدرة الكاتب على إماطة اللثام تماماً عن الروح ، ومن حيث هى كلمات كتبت فى برزخ بين الوعى واللاوعى، وهو أمر كان الكاتب يدركه تماماً ، بل ويدرك عواقبه الفنية على النص ، ولكنه لايجازف بتعذيب النص أو إعادة صياغته .

تحمل الاعترافات استقالة موقعة من الدنيا ، ومغازلة غير مسبوقة بالموت ، إذ يزينه على صورة حسناء يطلبها ويستدعيها كحل لمجموع أوجاعه طالبا منها (ضربة رحيمة سريعة ، سرطان مفاجئ ، نقص فى الأوكسجين ، سكتة قلبية) ولم أعرف أديباً حاور الموت مثله دون أن يعاتبه أو يكرهه أو يسميه خيانة للحياة ، حيث جعل من عزرائيل ، أنثى جميلة وأسماها إزرا وهام فى غرامها وانتظارها ، يقول (لقد نفذ صبرى ياحبيبتى .. إننى أشتاق لقسوتك البارقة كالخطف ، لغزوك المباغث كالسكتة ، لظلك الثقيل الذى يجللنا بتؤدة ووجع ، ياسادية البهاء اقطعى تيار كهرباء هذا المخ ، لتتجلى الحياة بدائية حسية مظلمة بلا مراسيم متكلفة وطقوس مصطنعة

تعالى ياإزرا لنقم بيننا سجالا رصيناً بعيداً عن التباس المعانى والمفانى ، تعاملى معى على أننى زهرة ، واقطفى أجنحتى وأنت تقولين ، يحبنى ، لا يحبنى ، نتفينى ، كأن سوداويتى من ريش ، ثم اجعلى رمادى بين راحتيك .. وانفخينى . لعلى أتناثر فى مهب قهقهة معتمة لاتأخذ الدنيا غلى محمل الجد).

بكل هذا الزخم من المشاعر الصاعدة خيناً والهابطة حيناً يندفع مستخدماً الاعترافات كسلاح فى تطهير الذات ويقول (أعترف أننى لجأت إلى هذا السلاح عندما أدركت أن البحر من ورائى ، وأتون المرائر من أمامى ، أيامى تمر من تحتى مع سفن البردى نحو مصيدة اليأس ، كأننى النسر الذى ينقض إلى قنصه ، ومن فوقى سماء تسقط على رأسى كالصاعقة)

مؤنس كان يعرف أن هذه أوراقه الأخيرة (أعرف أن محطتى الأخيرة دانية ، بوسعى أن أشم بارود مرساتى) من أين جاءت لحظة الكشف هذه ؟؟ لسنا نعرف ولكنه يشير إليها مراراً وتكراراً كأنها قنديل معلق بين عينيه (الأوراق الأخيرة فى المسودة الأخيرة .. لامتسع للنبص من حيث الزمن والطاقة).

الرحيل

فى صباح يوم ٢٠٠٢/٢/٤ وعمان مازالت تحتفل بتسميتها عاصمة للثقافة ، اختفى



العمود اليومى لمؤنس الرزاز فى صحيفة الرأى ، وحل مكانه اعتذار رقيق يفيد بأن مؤنس طريح الفراش يعانى من حساسية ما ، وتوالت أيام ثلاثة قبل أن يعلن فى صبيحة ٢٠٠٢/٦/٨ عن مفارقة المبدع الرزاز العالم إثر غصة اختنق بها ، قطعت تيار كهرباء المخ لنقص فى الأوكسجين ، رحل تاركاً فى صحيفة الرأى بياضاً لايمكن تحبيره ، حيث كان الفن يمتزج بالقضايا اليومية ، حين كانت النكتة ترسم المشهد السريالى لعالم السياسة والثقافة ، اختفى القلم الساخر ، الذى كان مسلحاً بإمكانات الرائى ، والمؤلم أننا فى كل صباح نفقد البدر والمقالات تتال فى محاولة للى عنق الحقائق ، ومسح الثوابت ، محاولة لجعل الموت لذيذاً ، وتسمية الاحتلال تحريراً ، والركوع مرونة ، والخوف حكمة ، عندما يدب كل هذا الخراب نتذكر مقالات مؤنس وكلماته ومواقفه ، نشعر بالتشظى ولكننا نظل على أمل.

---

* روائية أردنية

ملف

شهادات عن الرزاز

لقد أصبح غياب مؤنس إذن غياباً باتاً ، لايحتمل مراجعة أو إعادة نظر ، وهنا يبدو هذا الغياب قاسياً وبشكل خسارة كبيرة ، لأن الكاتب كان ينضج ، وبالتأكيد كان يتوقع منه الكثير .

عبد الرحمن منيف ـ روائى عربى

فقد مؤنس الرزاز خسارة فادحة للرواية العربية المعاصرة ، فهو من أبرز كتاب الجيل الثانى للرواية الأردنية ، وإذا كان لإبداعه من خصوصية ، فخصوصيته الأولى هى مواجهة القمع ومحاولة تعريته والكشف عن آلياته فى واقع الإنسان العربى المكسور.

جابر عصفور ـ ناقد مصرى

هذا الروائى بنى عالماً هو عالمه بامتياز ، وأسس لغة هى لغته بامتياز ، عطفاً على القضايا التى عالجها بجرأة وسخرية فاضحاً آلية " الماكنة " السياسية التى تحكم العالم العربى وخصوصاً الآلية الديكتاتورية ، ما أصعب أن يغيب مؤنس الرزاز على عتبة القرن

الحادى والعشرين ، لقد غاب وقلبه يردد مع بطلة " الختيار " ينبغى أن أرى القرن الحادى والعشرين ، سيكون عصر تحرر الشعوب المضطهدة

عبده وازن ـ شاعر وصحفى لبنانى

رحيل مؤنس الرزاز خسارة كبيرة للرواية العربية ، وأنا أكن لمؤنس كل الاحترام لأنه من رجال المبادئ المحترمين ، وهو كاتب مهم ومجدد إضافة إلى دوره الكبير فى الرواية الأردنية والعربية .

صنع الله ابراهيم – روائى مصرى

لم يترك لنا مؤنس وقتاً لنتفادى هذه الحيرة

احتجاج أمير ضد حقارة عصر وحقارة حال ، ترفع أمير ضد فساد ودناءة شاملين ، كآبة أمير يترك الحياة والسعادة للسواد والأعراب ، معاناة من لايتنازل عن معاناته ولو كان صليباً ، وتهكم من يتكلم من وحشة ووحدة لايعيشهما إلا من انفرد بنفسه ومكانه.

عباس بيضون – شاعر لبنانى

لقد خسرنا طاقة إبداعية عربية ، سيكون من الصعب أن يغطى الفراغ الذى تركه إلا بعد مرور زمن طويل ، يمثل نبأ الوفاة صدمة حقيقية بالنسبة لى ، فما زال الوقت مبكراً جداً على رحيله .

ممدوح عدوان ـ شاعر سورى

رحيل مؤنس ضربة مفاجئة وموجعة لى ، عاش حياة مأساوية سواء على صعيد العمل السياسى أو فى عمله الفنى الروائى ، ومات أيضاً ميتة مأساوية .

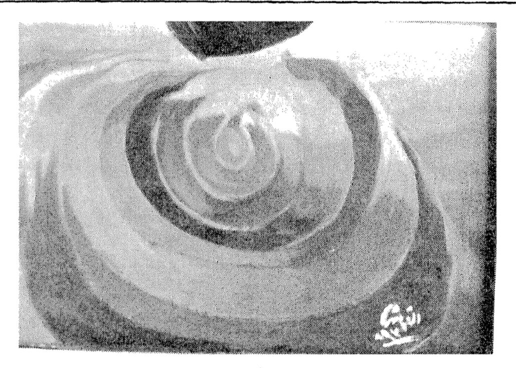
ادوارد الخراط ـ روائى مصرى

ننحنى إجلالاً لذكراه ، رحيله يحمل فى نفوسنا من الأسى والحزن ماهو فاجع ، كان على الدوام الروائى الكبير والنقابى والسياسى النزيه القومى الملتزم بقضايا أمته ، إنه أحد الذين شكلوا الوجدان الوطنى والقومى .

د. خالد الكركى – استاذ جامعى أردنى

الشخصية التراجيدية تكتشف فى نهاية المطاف أن العالم الذى تعيش فيه أصغر بكثير من حجمها ، لهذا تغادر العالم بشرعيَة عدم البقاء فيه ، رحل مؤنس عن وجدان الوعى المحدود إلى وجدان اللاوعى الذى لاحدود له ، إلى فضاء النص المطلق ، إلى أفق الخلود.

محمد شاهين – ناقد أردنى



ها أنت يامؤنس قبل غيابك ، خصوصاً خلال العام من غيابك ، تتلو ورداً ورداً ، رواية رواية ، على ماكنا ، مانحن فيه ، أو مانحن مقبلون عليه ، فماذا بعد يامؤنس ؟ ماذا بعد ؟

نبيل سليمان – روائى سورى

عهداً يامؤنس أننا سنبقى نعمل للحرية التى طالما عشقت ، من أجل أن تصبح كل مدننا مدناً لاتموت ، وحينها فقط يعود إلينا مؤنس ، ذو القامة المديدة والضحكة المجلجلة ، والعينين الواسعتين ، ليملأ حياتنا من جديد

معن بشور – مفكر لبنانى

يا الله كم هو متعب وحزين هذا الخبر ، إنه فقد حقيقى ، كان أحد أهم الأصوات الأدبية الجريئة والمهمة والمحاورة التى لايمكن إلا أن تشعر بغيابها ، مؤنس آت من تجربة حقيقية ، عمل طوال الوقت على تشكيل رؤيته وتجاربه الإنسانية فى سبيل إغناء الحوار والعمل الثقافى والسياسى إضافة إلى محبة الأرض التى نعيش فيها .

قاسم حداد – شاعر بحيرنى

كان التاريخ يهبط وأنت تحاول الصعود ،.بنفسك وبما حولك ، كنت ترى وتؤمن أن الإنسان فى اللحظة التى يختار فيها طريقاً فإن كل شىء يأخذ عنده معناه ، فيعرف لماذا اختار ماكان قد اختار وإلى أى غاية يسعى بنفسه.

ماجد السامرائى – ناقد عراقى.

ملف

سيرة ذاتية

ولد مؤنس منيف الرزاز في العام ١٩٥١ في مدينة السلط في الأردن ، وتلقى تعليمه في مدينة عمان ، مدرسة المطران.

رحل عام ١٩٦٥ إلى دمشق عقب انتخاب والده أميناً عاماً للقيادة القومية لحزب البعث الاشتراكي.

درس اللغة الإنجليزية في جامعة اكسفورد ، ثم عاد إلى بيروت لدراسة الفلسفة لكنه لم يكمل دراسته إذ اندلعت الحرب الأهلية اللبنانية ، انتقل إلى العراق حيث شغل والده منصب الأمين العام المساعد للقيادة القومية لحزب البعث العربي الاشتراكي ، أكمل دراسته هناك ، وشهدت تلك الفترة صدور مجموعته القصصية الأولى (البحر من ورائكم)

غادر إلى أمريكا لإكمال دراسة الفلسفة في جامعة جورج تاون ، ثم إلى بيروت حيث عمل باحثاً في مجلة (شئون فلسطينية)

عاد إلى عمان عام ١٩٨٢ ، ومنذ منتصف الثمانينيات بدأ يبرز في النتاج الأدبي

الغزير والنوعى ، استحق جائزة الدولة التشجيعية ، ثم التقديرية ، ونال ميدالية الحسين للتفوق ، وقد اختارت اليونسكو روايته (الذاكرة المستباحة) لتكون ضمن مشروع كتاب فى جريدة.

عمل مستشاراً لوزير الثقافة ، إضافة إلى أنه كتب عموداً ثابتاً فى صحيفة الدستور ثم الرأى ، ترأس رابطة الكتاب الأردنيين عام ١٩٩٣ ، وانتخب أميناً عاماً للحزب العربى الديمقراطى ، مالبث أن استقال من المنصبين متفرغاً للكتابة رحل يوم ٢٠٠٢/٢/٨ إثر حالة اختناق لم تسعفه طويلاً.

صدر له تباعاً

- مد اللسان الصغير فى وجه العالم الكبير – خواطر
- البحر من ورائكم – قصص
- النمرود – قصص
- أحياء فى البحر الميت ـ زواية
- اعترافات كاتم صوت ـ رواية
- متاهة الأعراب فى ناطحات السحاب ـ رواية
- جمعة القفارى أو يوميات نكرة ـ رواية
- الذاكرة المستباحة ـ رواية
- مذكرات ديناصور ـ رواية
- الشظايا والفسيفساء ـ رواية
- فاصلة فى آخر السطر – رواية
- سلطان النوم وزرقاء اليمامة – رواية
- عصابة الوردة الدامية – رواية
- حين تستيقظ الأحلام – رواية
- ليلة عسل – رواية
- الغائب الحاضر – مقالات صحيفة جمعت بعد رحيله
- المجموعة الروائية الكاملة – صدرت بعد رحيله
- له مخطوط الاعترافات – لم ينشر بعد.

فكـــر

الشخصية العربية بين التقليدية والحداثة

د. عاطف أحمد

لست أعنى هنا بتعبير الشخصية العربية المعنى الذى يتبناه" هشام جعيط" فى كتابه عن " الشخصية الإسلامية والمصير المشترك" (دار الطليعة، الطبعة الثانية ،١٩٩٠) والذى يتناول العملية الجدلية التى تتحدد من خلالها العلاقة بين العروبة ، التى تمثل الرابطة القومية ، والإسلام ، الذى يمثل الرابطة الأيدولوجية الثقافية والدينية ، من منظور تاريخى . حيث يحاول دراسة تلك العلاقة من خلال جدلية الاستمرارية والتغيير والإصلاح والتجديد الدينى هادفاً إلى دمج الإسلامى فى العروبى وتكوين بناء موحد للإنسان العربى المسلم وفى الوقت نفسه ، فلست أعنى بذلك التعبير إجراء تحليل سيكولوجى على الطريقة الفرويدية كما يفعل " على زيعور " فى مشروعه الذى يحمل عنوان "التحليل النفسى للذات العربية"(دار الطليعة ، بيروت،١٩٧٧) رغم أننى بطبيعة الحال اتفق معه فى بعض النتائج التى أرى أنها ليست وثيقة الصلة بمنهجية التحليل النفسى بل هى أقرب إلى أن تكون تعبيرا عن ملاحظات عامة لتصرفاتنا وسلوكياتنا فى حياتنا اليومية . ليس هذا فحسب بل إننى أتفق معه فى الهاجس الأساسى الذى دفعه إلى التفكير فى إشكاليات الواقع الراهن على هذا النحو ، ذلك أنه يرى أن الذات العربية تعانى من " إخفاقات فى التكيف مع الحضارة العالمية والعقلية العلمية" كما تعانى من إخفاق فى التوازن مع النفس وأن مشروعه كله إنما هو محاولة لعلاج هذا الإخفاق الناشىء عن "السلوك الخرافى والعقلية الانفعالية اللاعلمية" .كذلك اتفق معه فى الهدف الذى سعى إليه والذى ينبنى على ضرورة أن نكتسب عقلية أو طريقة فى التفكير " تكون إيجابية ، نقادة ، موضوعية ، تعمل على القوانين والانتفاع منها".

فبالنسبة لى ، فإننى أتناول الشخصية العربية باعتبارها مفهوماً عاماً يشير إلى السمات التى نجدها

لدى العرب عموماً كأفراد أو جماعات والتى تميز الإنسان العربى- إذا جاز هذا التعميم عن سواه . وهى سمات لم أصل إلى تحديدها من خلال أى منهج تجريبى أو استقرائى أو حتى إحصائى وإنما من ملاحظات وخبرات شخصية وانشغال بالموضوع فضلا عن بعض الوقائع والتحليلات التى وجدتها هنا وهناك دون إطار منهجى محدد. وإن كنت أميل فى هذه اللحظة إلى اعتبار المنهج الفنومنولوجى وأقرب المناهج الملائمة للطريقة التى تناولت بها هذا الموضوع .والواقع أننى حاولت جاهداً أن أضع الظاهرة أمام النظرالعقلى المباشر والقصدى والذى يبدو لى أنه متحرر من أى أحكام أو تحيزات أو تفضيلات مسبقة مستهدفاً الوصول إلى رؤية شاملة بقدر الإمكان تكون بمثابة فرضية تفسيرية لفهم وتحليل الظاهرة موضوع البحث وهى الشخصية العربية.

وأتصور أن هناك أربعة محاور أو مستويات أو عوامل يمكن أن تكون قد أسهمت فى صياغة شخصية الإنسان العربى المعاصر : أولا الموروث الثقافى والدينى على وجه الخصوص ، وثانياً التحدى التاريخى للآخر الأوروبى أو الغربى عموماً ، وثالثاً التأثيرات الناتجة عما يمكن تسميته بعملية الحداثة المشوهة التى شهدتها مجتمعاتنا العربية بدرجات متفاوتة ، ورابعا تأثير ما نتج عنها فى الغرب من رؤى نقدية ما بعد- حداثية ثم تطوراتها الأخيرة فيما يعرف بظاهرة العولمة وبخاصة مضمونها الليبرالى الجديد وحرية التجارة ذات الاتجاه الواحد أساسا وابتعاد الدولة تماما عن مجال النشاط الاقتصادى.

فأما بالنسبة للموروث الثقافى الدينى والذى يمثل المحور الأول والأساسى فى تشكيل الشخصية العربية المعاصرة فهو ذو دور فاعل شديد الفاعلية في تكوين الشخصية العربية سواء كان على مستوى الشعور أم اللاشعور الجمعى الأمر الذى يبدو واضحا من خلال حقيقة أن الصراع الاجتماعى على مدى التاريخ العربى إنما تميز بأنه ، وأيا كان نوعه ، اتخذ شكل صراع دينى.

ولعل منشأ تلك السمة أى ارتباط السياسى بالدينى أو بتعبير أدق تبرير السياسى بالدينى ، فربما يرجع إلى ظاهرة فريدة فى التاريخ ، وهى أن النبى كان هو الذى أسس بنفسه دولة سياسية ذات مشروعية دينية مستمدة من حضوره الشخصى ، هذا أولا. وثانياً فقد كان التوسع المسلح وغزو الآخر التى تأسست عليه الخلافة إنما تم باسم الدين وبالتالى ظلت المشروعية الدينية هى مشروعيته الوحيدة

باعتبار أن الحاكم هو خليفة الرسول فى الحكم. وهكذا استمرت الأمور حتى الخلافة العثمانية التى نسبت نفسها وعزت مشروعية غزواتها وتوسعاتها ، أيضا - إلى الدين.

فإذا أضفنا إلى ذلك الجمود التاريخى الطويل الذى عانت منه المجتمعات العربية الإسلامية بعد ذلك والذى أدى إلى هيمنة المركب الثقافى-الاجتماعى الريفى أو البدوى ، القائم على العائلة الممتدة أو القبيلة كوحدة اجتماعية مستقلة تختص بالتنشئة الاجتماعية للأفراد إطاراً للانتماء والولاء والقيم ، فإننا ندرك إلى أى مدى من العمق يمكن للموروث الثقافى الدينى أن يتغلغل فى الشخصية العربية ويلعب دوراً محوريا فى صياغتها.

يضاف إلى ذلك ، هيمنة اللغة العربية وثقافتها الخاصة . وبالذات الميل إلى إضفاء طابع القداسة عليها باعتبارها لغة القرآن الأمر الذى أدى إلى تجميدها فى قوالب ثابتة والذى لولا الضرورات العملية البحتة لظللنا نتحدث ونفكر داخل تلك القوالب بمفرداتها وتراكيبها.

وقد أدت تلك العوامل الخاصة بالموروث الثقافى الدينى إلى تكوين سمات معينة فى الشخصية العربية، ظلت ذات تأثير هنا وهناك فى طبقات مختلفة من الشعور أحيانا من اللاشعور ، وهى تأثيرات يمكن رصدها على عدة مستويات نفسية وفكرية وسياسية ولغوية وحياتية:

•فعلى المستوى النفسى يمكن القول أننا ما زلنا أسرى التركيبة النفسية الاجتماعية التى عبر عنها الشعر البدوى القديم والتى تجعلنا معتدين بذواتنا إلى حد التعالى على الآخرين أيا كانت جدارتهم ،وتجعلنا ،فى الوقت نفسه ، شديدى الاهتمام بسلوكنا الخارجى دون حقيقتنا الداخلية ، بل لعل نفس تلك التركيبة هى التى تجعلنا نعيش دائما فى تناقض بين القيم المعلنة(المبالغ فيها والمثالية)وبين الواقع الإنسانى مما يؤدى إلى إزدواجية القول والفعل، وانفصام العلاقة بينهما ، وهى العملية التى تستتبعها عدة مواقف سلوكية:

منها أننا نقول ما هو متوقع وواجب ومتفق مع المظاهر الاجتماعية، بينما نفعل فى الواقع ما هو متوافق مع الرغبة والمصلحة والدوافع الشخصية ، ومنها اعتبار القول فعلا وحلول الأقوال محل الأفعال ، ولعل الأهم من ذلك هو ازدواجية الوجدان والسلوك التى تتبدى فى عدم الاعتراف العلنى بالرغبات الداخلية مما يؤدى إلى كبت التعبير عنها وبالتالى إلى زيادة حدتها والتركيز الشديد عليها

(النهم الجنسي والحسي عموما) .وهو ما يخلق لدينا حالة خاصة من الانفصام بين مكونات الشخصية.

•وعلى المستوى العقلي: ربما بتأثير المعتقد الراسخ لدينا هو أننا كنا وما زلنا وسنظل-خير أمة أخرجت للناس، لأن لدينا وحدنا- كلام الله ولدينا-وحدنا-خاتم الأنبياء، وربما أيضا ، لأن الواقع الفعلي ،ينبئنا دائما أننا لسنا كذلك بأى مقياس من المقاييس، وأن الآخر الأوروبي ، الذى هو حاضر في عقولنا وأبصارنا وآذاننا طوال الوقت ،متفوق علينا تفوقا ساحقا، أقول إنه ربما بتأثير تلك العوامل وما يماثلها ،نشأت لدينا عقلية الدوجما :وهي مركب عقلي- نفسي من شأنه أن يقصي الآخر بالكامل في الخيال على الأقل ويتسم بخصائص معينة من مثل:

-الوقوع تحت سطوة اعتقاد قاطع راسخ غير قابل للتعديل وفقاً لمعطيات الواقع أو استدلالات المنطق بصحة ما يؤمن به الفرد وببطلان ما يؤمن به الغير.

-ويتميز هذا الإيمان بأنه محمل بشحنة عاطفية انفعالية هائلة تدفع إلى التعصب الشديد للدفاع عنه ضد الآخر الذى يعتبر عدواً شخصيا يجب القضاء عليه بأى صورة ممكنة.

-كما يتسم بالتماسك والتضامن مع من يشاركونه نفس الموقف ويعتبر أنهم يشكلون معاً وحدهم حزب الحق.

-كذلك فنحن كثيراً ما نتبنىعقلية المؤامرة التى تفرض أن ذوى الرأى الآخر يدبرون لنا مكيدة ما، كراهية منهم لنا لأنهم يعلمون أننا وحدنا الذين نملك الصواب.

-وكل ذلك يؤدى إلى إقامة هوة واسعة،تفصل بين من يشايعوننا الرأى وبين من يخالفوننا إياه .وفى الوقت نفسه ،وربما بسبب الوضعية المتأزمة التى يؤدى إليها الموقف الدوجمائى، تنشأ لدينا عقلية منصرفة إلى الأقوال لا إلى الأفعال وعازفة عن تحليل الواقع ومن هنا عدم الفاعلية فيه.

•وأما على المستوى السياسي فتسود لدينا عقلية الوصاية الأبوية الاستبدادية ،حيث يلعب الحكام لدينا وأيا كان النظام السياسي المعلن ، دور الأب الراعي للمجتمع بأسره والذى يكتسب بذلك وضعية شبه تقديسية تجعله صاحب القرارات السيادية العليا التى هى دائمة الصواب لأنها تعبر عن حكمة شبه إلهية لا يراجعه فيها أحد كما أنه من غير الوارد أن يترك موقعه مادام حياً.

كما تغيب لدينا روح العمل الجماعى (المدنى) لحساب الفردية العائلية أو القبلية . وبالتالى نظل بعيدين تماما عن مجتمعات المؤسسات المدنية المستقلة والفاعلة فى مختلف المجالات .

*كذلك فإننا على المستوى اللغوى: نجد أن لدينا ولعا خاصا بالجدال والمبارزات اللفظية وتحقيق الانتصارات الصوتية ذات النبرة العالية دون اعتبار للواقع الفعلى، وميلا إلى إطلاق الأحكام العامة القطعية دون أدلة كافية.

هذا بالنسبة للمحور الأول الخاص بالموروث الثقافى الدينى.

أما بالنسبة للمحور الثانى والخاص بالعلاقة بالآخر فإن الشعور بتفوق الآخر علينا بما لا يقاس وحيث لا تبدو فى الأفق-القريب أو حتى البعيد-أى احتمالات للتساوى معه، قد أدى إلى إحساس عميق بالمهانة تجاه ذلك الآخر القوى والمتقدم من ناحية ،والشعور بعدم القدرة على الاستغناء عنه- لأننا لا نستطيع سوى أن نستهلك ما ينتجه- من ناحية ثانية. ومثل تلك العلاقة المتناقضة ، من الطبيعى أن تصبح محملة بتوترات لاحصر لها. والواقع أن ثمة هوة بالغة الاتساع بين صورة كل منا فى عيون الآخر. وربما كانت الوقائع والظروف التاريخية التى أحاطت بالالتقاء بينهما هى التى أسهمت فى تعقد ذلك التصور المتبادل. وإن كان ذلك بطبيعة الحال لا ينفى على الإطلاق دور الهيمنة الاستعمارية فى خلق تلك التناقضات .

وهو دور كان يقتضى على الأقل، فى الوقت الراهن، اعتذاراً رسميا من الغرب . على أى حال فقد أدت تلك الوضعية إلى وقوعنا فى إشكالية ملتبسة تجاه الحداثة.

أما بالنسبة للمحور الثالث فيمكن القول بأن اقتحام الحداثة الآتية من الخارج والمباغتة، لبنيات تقليدية ذات موروث ثقافى دينى متجذر وطويل المدى جعلها تمس السطح الخارجى للمجتمع دون عمقه الداخلى: النفسى والعقلى والقيمى والسلوكى،حيث اختلطت فيه الأمور فنتج عن ذلك ما يمكن تسميته بالحداثة الظاهرية المشوهة. بمعنى أننا حداثيون من حيث الأطر المادية للحياة الاجتماعية لكننا فى داخلنا وفى سلوكياتنا أقرب إلى تكوينات العصور الوسطى منا إلى الحداثة . وهذا مصدر آخر للتناقض والازدواجية فى تكون شخصيتنا.

ذلك أننا إذا اتفقنا على أن نكون واقعيين وموضوعيين،فعلينا أن نتذكر كيف التقى كل من الغرب والمسلمين بعضهما ببعض .لقد التقينا بالغرب الأوروبى من خلال العملية الاستعمارية القائمة على القوة والتقدم العلمي والتكنولوجى من طرف ،والمقاومة والتخلف الاجتماعى والسياسى والعسكرى من طرفآخر . وهو ما يجعلنا أسرى إشكالية تبدو بلا حل.

أما بالنسبة للمحور الرابع ،ولعله يختص بالمجتمع المصرى أكثر من سواه من البلدان العربية ، فهو يتمثل فى التحول الذى حدث من اقتصاد الدولة ومركزية التخطيط والحزب الواحد إلى التعديل الهيكلى والخصخصة والتعددية الحزبية أى ما يسمى بالانفتاح الاقتصادى والسياسى.

والواقع أن ذلك التحول ، مثل أى شيء فى حياتنا ، لم يكن عملية مدروسة على مستوى متخصص، ولا متدرجة فى تطبيقها ، ولا كانت عملية تلقائية حدثت فى المجتمع نتيجة لعوامل داخلية فيه ، بل كانت نتيجة لقرارات سياسية آتية من قمة السلطة ، لدوافع لا علاقة لها بجدوى مثل هذه العمليات أو فائدتها للمجتمع . فأحدث ذلك خللا اجتماعيا واقتصاديا خطيرا فى بنية المجتمع. إذ صعد بطبقات المقاولين والسماسرة والحرفيين والمغامرين من كل نوع ، وجمد أوضاع الطبقات الوسطى والمثقفة بالذات ، وأطاح بالطبقات الأدنى ، وهمش فئات اجتماعية لا حصر لها . وبطبيعة الحال أحدثت تلك التحولات الفوقية تغيرات عميقة فى منظومة القيم السلوكية ومنظومة الدوافع التى أصبحت تحرك الأفراد.

فقد سادت قيم الشطارة والفهلوة ،والحصول على المال دون أى عمل حقيقى ،وقيم الصعود بأى ثمن والشللية والنفعية ،كما سادت النزعة الفردية والمادية الأخلاقية والبحث عن الثراء والنفوذ دون اعتبار لأى شيىء آخر.

ومن ناحية أخرى.. شهدت نفس الفترة بروزا واضحا لحركات العنف الدينى.

وعلى الرغم من أن التطرف الدينى ظاهرة موجودة فى كل المجتمعات تقريبا . خاصة وقت الأزمات. لكن هناك فرقا بين التطرف الدينى فى الفكر وبين العنف الدينى المسلح الذى يحاول تغيير النظام السياسى بالقوة المسلحة والاستيلاءعلى السلطة وفرض معتقداته على المجتمع بأسره بالقوة الجبرية .

فهـذا مـا حـدث فـى منطقتـنا. فـإذا أضـفت إلى ذلـك حجم الظاهرة ومداها ،فربما وجدت هنا ما يميزنا قليلا أو كثيرا عن المجتمعات الأخرى.

وجديـر بالملاحظـة أن الـتطرف لديـنا لـيس مقصـورا عـلى الـتطرف الديـنى بـل هـناك أنواع أخرى من الـتطرف ربمـا كانـت حـتى مناقضـة للـتطرف الديـنى. فهـناك الهـوس بمـا ينتجه الغرب من وسائل الترفـيه والأغـانى واسـاليب الحـياة، وهـناك انحلال خلقى شديد أيضا قد يصل إلى حد التطرف ،مثلما لديـنا هـوس بالشـكليات الديـنـية دون تدين حقيقى أو حتى إلمام بأبجديات قراءة القرآن مثلا. يبدو إذن أن التطرف هو سمة عامة فى مجتمعنا نتيجة لأزمة عامة عميقة يمر بها هذا المجتمع.

أمـا بالنسـبة للسمات الشخصية للمثقفين ،فالتاريخ الحديث يفسر لنا، إلى حد كبير، أسباب التحولات السلبية لديهم.

لقـد كانـت هـناك، قـبل الـثورة ، ارسـتقراطية ريفـية ذات تقالـيد راسخة وكان أبناؤها يتلقون تعليما غربيا وينشأون على الأساليب الأوروبية فى الحياة ويحتفون بالثقافة وبالفنون.

ثـم جـاءت الـثورة ولديهـا شـكوك عميقة فـى المـثقفين . فظلت هناك فجوة قائمة بينهما حتى انضمت إلـيها اتجاهـات يسـارية فكـرية،كان الـنظام- فـى تحولاتـه الـبراجماتية -فـى حاجة إليها، فنشأت مؤسسـات ثقافـية أداراتهـا الدولـة وشارك فيها قطاع لا بأس به من المثقفين . لكن كثيرا منهم أيضا ظل ملـتزما الصـمت . لأنـه لم يكـن مـتاح وقـتها سوى الصمت . أما من فضل منهم بالكلام فإما أنه كان يتم نفـيه بطـريقة أو أخـرى إذا كـان نـاقدا للسـلطة أو تجـرى علـيه تحولات ما تجعله يقع فجأة فى هوى السلطة فيندمج فيها بل وقد يصبح من كبار المنظرين لها.

وحيـنما حـدث الانفـتاح، بدأ نوع من حرية التعبير الشكلية التى تبين فيما بعد أنها كانت ذات سقف مـنخفض جـداً . لكـن الـتحولات الاقتصـادية والاجتماعـية أطاحـت تقريـبا بـتأثير المثقفين لتطفو على السـطح نخـبة لا علاقة لها بالثقافة إن لم تكن على علاقة عداء لها. وتشكلت نخب سياسية واقتصادية مقاربـة لهـا ومـن نفـس نوعيـتها. وما زالت بقايا هذه النخب هى التى تشكل الطلب الثقافى الفعال فى المجتمع حتى الآن. من هنا تدنى مستوى الفنون والثقافة خاصة فى أجهزة الاعلام.



كذلك فإن نظام التعليم لدينا، وهو مصدر هام من مصادر تكوين الشخصية ، يسمح بتخريج أميين بجدارة أيا كانت الدرجات التى يحصلون عليها .ولعل من الأمور الواضحة أن ذوى التعليم العلمى البحت أو التطبيقى (التكنولوجى) أكثر أمية من سواهم فى المسائل المتعلقة بالعلوم الإنسانية والاجتماعية ، إذ يغيب لديهم الأفق النظرى والنقدى على السواء.

هذا من ناحية ، ومن ناحية أخرى ، فحينما لا تكون هناك سلع جيدة منافسة فى السوق ، فإن الذوق نفسه يتعود تدريجيا على السلعة الرديئة أى على رداءتها بل حتى ربما يدمنها . الأمر قد يفسر انحطاط الذوق العام فى مختلف المجالات.

فإذا أضفنا إلى ذلك . ما تتعرض له الأجيال الجديدة من تأثيرات عاصفة تحملها معها رياح العولمة ذات التوجه الليبرالى الجديد ، بما تحمله معها من إحلال لثقافة الصورة المتحركة السريعة الإيقاع والصاخبة والتى يتم تلقيها بروح خلت من أى حس نقدى أو تفكير مستقل بل بنوع من التصديق الساذج لعقول لا تعرف معنى الفكر النقدى لأنها لم يحدث أن مارسته من قبل، يمكننا تصور حجم الكارثة التى تنتظرنا ؟ ، إن لم يكن فى القريب العاجل ، ففى المستقبل الذى ليس شديد البعد عنا أكان ذلك فى الزمان أو المكان.

صفحات من كتاب : « النزعات المادية فى الفلسفة العربية الإسلامية »

للمفكر الراحل : د. حسين مروة

(٣)

المواقف المختلفة من التراث الفكرى

د. حسين مروة

بعد كل ماسبق من إيضاحات منهجية فى سياق هذه المقدمة ، نصل إلى مرحلة الاستقصاء التاريخى النقدى لمختلف المواقف من التراث الفكرى العربى - الإسلامى بعامة ، ومن قسمه الفلسفى بخاصة ، فى الماضى والحاضر ، هذا الاستقصاء تفرضه ضرورة منهجية أيضاً. ذلك لكى نرى، فى ضوء الإيضاحات السابقة ، وفى ضوء المقارنات التى يستوعبها هذا الاستقصاء ، مدى الموافقة أو المخالفة للأسس النظرية والأيديولوجية التى اعتمدناها فى طريقة التعامل مع التراث ، ولكى نبحث عن الأسباب الكامنة وراء كل موقف موافق أو مخالف لهذه الأسس ، ثم لكى نستخلص من ذلك كله - فى نهاية الأمر - صيغة موجزة فى هذه المقدمة للجواب عن السؤال الذى طرح نفسه علينا منذ لحظة التفكير بمشروع تأليف هذا الكتاب ، وظل يطرح نفسه طوال سنوات البحث والاستقصاء اللذين جعلا من هذا الكتاب نفسه جواباً عنه . كان السؤال هكذا : أى ضرورة تدعو لإضافة كلام جديد حول التراث الفكرى العربى - الإسلامى، والفسلفى منه بخاصة ، بعد الكلام الكثير والحشد الضخم من

المؤلفات الموضوعة عن هذا التراث منذ نهايات القرون الوسطى حتى نهايات النصف الثانى من القرن العشرين؟

إن رصد المواقف المختلفة من هذا التراث ، على نحو من الاستقصاء الشامل ، فى مؤلفات القدماء والمحدثين ، هو الذى حدد لنا وجهة الإجابة عن السؤال المطروح هذا ، وحدد لنا أيضاً أسلوب هذه الإجابة . فقد وجدنا ، خلال البحث والاستطلاع ، أن كثيراً من هذه المواقف ، على اختلاف عصورها واختلاف بيئاتها الاجتماعية واختلاف معداتها المعرفية ومقاييسها التى تنطلق منها فى تقويم التراث ، قد ظل فى نطاق الموقف الوحيد الجانب ، كما أشرنا فى مستهل هذه المقدمة . ونحن معنيون فى هذه المرحلة من المقدمة أن نعرض ، بكثير من التفصيل ، مايلقى الأضواء الكاشفة عن صحة مانزعم من دعوى أحادية الجانب فى الكثرة الغالبة من تلك المواقف.

لن يكون هذا العرض سرداً مجرداً للأشخاص والمؤلفات . فإن هذه الطريقة أبعد ماتكون عن منهجيتنا فى البحث ، لأنها أقرب إلى التنازل الذاتى . ولكن ، قد نلجأ إلى شىء من السرد اضطراراً خلال تحليل المواقف وتصنيفها بين هذا التيار وذاك.

إن الذين كتبوا فى التراث الفكرى العربى ـ الإسلامى : تاريخاً ، أو تفسيراً ، أو دراسة ، هم مختلفون بانتماءاتهم التاريخية والاجتماعية والأيديولوجية ، مختلفون بجنسياتهم الوطنية وبمستوى المعارف التى تنطلق منها رؤية كل منهم لمحتوى التراث ، فإن منهم القدماء والمحدثون ، ومنهم التقدميون والمحافظون ، الماديون والمثاليون ، السلفيون والعدميون ، ومنهم العرب والشرقيون والغربيون ، ومنهم المؤرخون واللاهوتيون والباحثون الاجتماعيون والفلاسفة . إن هذا التداخل المعقد بين مختلف الانتماءات تلك ، لايسمح لنا باختيار التصنيف المبسط الذى يفرز كل انتماء على انفراد . فلابد إذن من اختيار التصنيف المتداخل على غرار الانتماءات المتداخلة ذاتها ، لذا سنعتمد نوعين متداخلين من التصنيف : أولهما ، منهجى يقوم على أساس اختلاف مناهج الرؤية للتراث والأساليب الفكرية فى معالجته ، ثانيهما ، توضيحى يصنف الباحثين فى التراث إلى ثلاثة فرقاء:

١ـ العرب والشرقيون القدماء (بين القرون الوسطى والعصور المتأخرة حتى القرن الثامن عشر)

٢ـ العرب والشرقيون المحدثون (منذ القرن التاسع عشر حتى لحظتنا هذه من القرن العشرين)

٣ـ الباحثون الآخرون من مختلف الجنسيات الوطنية ، ولاسيما المستشرقين منهم.

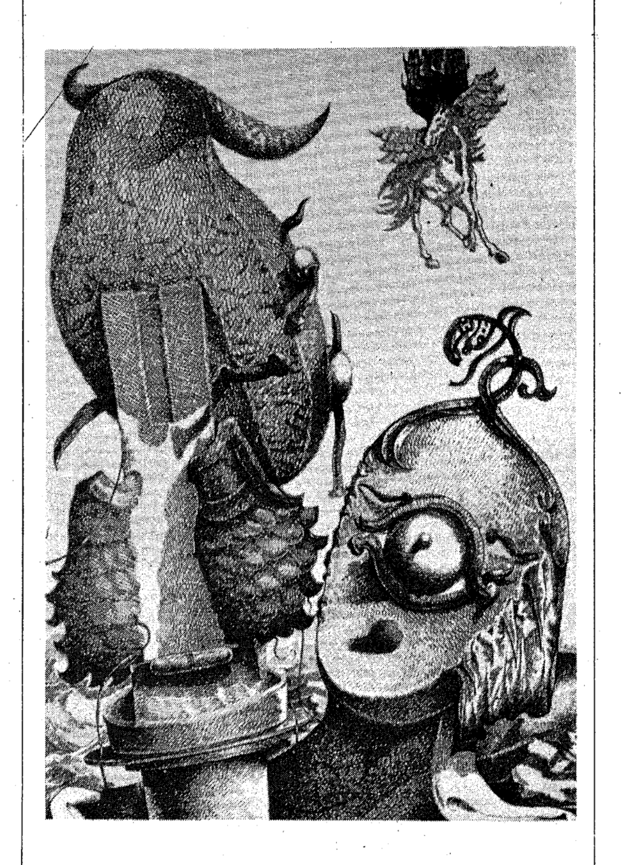
أما التصنيف الأول المنهجى فيشمل جميع الفرقاء الداخلين فى التصنيف الثانى التوضيحى . لأن هؤلاء جميعا لايخرج أحد منهم عن أن يكون منتهجاً أحد الأساليب الفكرية الأربعة الآتية :

أولاً - أسلوب النظر إلى تاريخ تطور الفكر ، ولاسيما الفلسفى منه ، على أساس أنه تاريخ أفكار فقط أو نتاج فكر « شخصى » تنحصر علاقاته بأشخاص منتجيه ، دون النظر إلى أى علاقة له أو لهؤلاء « الأشخاص » بظروف العصر الذى ينتسبون إليه ولا بخصائص المجتمع الذى عاشوا وفكروا ضمن علاقاته الاجتماعية وضمن الخصائص التاريخية المتميزة لهذه العلاقات ، أى دون النظر إلى صلة العملية الفكرية بعملية التفاعل بينها وبين مجموعة من العلاقات الاقتصادية والاجتماعية والسياسية والتاريخية . إن الذين أخذوا بهذا الأسلوب الفكرى فى كلامهم على تراث الفكر العربى - الإسلامى ، من مختلف الفرقاء الثلاثة فى تصنيفنا السابق ، قد اكتفوا من الكلام على هذا التراث بطريقة سرد تسلسلياً وتفسيرياً مجرداً من كل علاقة تفاعلية بين أصحاب الأسماء والأفكار هذه وبين مجتمعهم وعصرهم . ولكن ، هناك علاقة وحيدة كان ينصب عليها اهتمام أولئك المؤرخين والباحثين ، هى علاقة التأثير أو التأثر بين اللاحق والسابق من مفكرى التراث هذا ، أو بين كل واحد منهم وبين هذا المفكر أو الفيلسوف وذاك من خارج الفكر العربى - الإسلامى ، كمفكرى اليونان والفرس والهند أو فلاسفتهم. ذلك يعنى أن أولئك المؤرخين والباحثين يحصرون العلاقات التاريخية فى العلاقات الفردية أو التأثرات الذاتية ، لكأن كل فرد يشكل عالماً وحده مستقلاً منعزلاً عن عالم الواقع الاجتماعى ، ولكأن التأثرات المتبادلة بين الأفراد هى علاقات مجردة تجرى مباشرة عبر هذه « العوالم » بذاتها وباستقلالها وانعزالها عن علاقات الواقع الاجتماعى .. ومن الواضح أن أسلوب النظر هذا هو ضرب من التفكير المثالى.

ثانيا - أسلوب النظر إلى علاقة التبادل بين ثقافات الشعوب ، بعضها مع بعض ، نظراً ميكانيكياً صرفاً ، يكتفى بأن تنتقل ثقافة شعب إلى شعب آخر، بوسيلة ما ، لكى تسيطر على تفكير الشعب الذى انتقلت إليه ، ولكى تنفى السمات الخاصة لثقافته وتطبع هذه الثقافة بطابع سماتها هى ، أى سمات الثقافة الخارجية الوافدة . بهذا الأسلوب الفكرى نظر الكثير من البحوث والدراسات التى اهتمت بالفلسفة العربية - الإسلامية ، ولاسيما ماكتبه بعض المستشرقين الأوروبيين من الزعم أن هذه الفلسفة ليست عربية أو إسلامية بقدر كونها نسخة عربية للفلسفة اليونانية (١) التى تبناها العرب - الإسلاميون وانتسبت إليهم بكل مزاجها « الفسيفسائى» (الأفلاطونى - الأرسطى - الأفلاطونى المحدث) . وقد انساق إلى مثل هذا الأسلوب فى النظر إلى هذه الفلسفة بعض الباحثين العرب المحدثين ، فزعم أحدهم - مثلاً - أن الروح الإسلامية لم تستطع

أن تفهم روح الفلسفة اليونانية ولم يكن عند واحد من المشتغلين بالفلسفة اليونانية من المسلمين روح فلسفية بالمعنى الصحيح ، وإلا لهضموا هذه الفلسفة وتمثلوها واندفعوا إلى الانتاج الحقيقى وأوجدوا فلسفة جديدة ..(٢) رغم الفارق بين الزعمين السابقين من حيث كون الأول أثبت الطابع اليونانى الصافى لما انتجه العرب الإسلاميون من فكر فلسفى ، وكون الثانى نفى عنه حتى الطابع لكى ينفى عنه الروح الفلسفى إطلاقاً - رغم هذا الفارق ، يلتقى كلاهما على أسلوب فكرى مشترك ينظر إلى علاقة فكر شعب بفكر شعب آخر نظرة تبسيطية ميكانيكية ، لأن الأول لم يستطع أن يرى فى الفلسفة العربية - الإسلامية سوى الشكل الخارجى للقضايا التى عالجتها هذه الفلسفة ، وهو الشكل التاريخى للفلسفة العامة حتى القرون الوسطى ، ولأن الثانى لم يستطع أن يرى الروح الفلسفى فى نتاج الفلاسفة العرب - الإسلاميين إلا من خلال القضايا التى عالجتها الفلسفة اليونانية بعينها ، فلما لم يجدها هى نفسها فى نتاج الفكر الفلسفى العربى - الإسلامى نفى عن هذا النتاج حتى صفته الفلسفية.

إن قضية العلاقة بين فكرين أو فلسفتين ينتميان إلى مجتمعين مختلفين ، قضية معقدة لأنها تخضع لعملية معقدة ترفض مثل هذا النظر التبسيطى الميكانيكى. إنها قضية العلاقة بين الداخلى والخارجى من أشكال الوعى الاجتماعى ، وهى علاقة تفاعل له قوانينه وديالكتيكه الحركى . إن السمة العامة الأساسية لقوانين هذه العلاقة هى أولاً كونها موضوعية وليست ذاتية إرادية ، وهى - ثانياً - كون الفكر الخارجى لايمكن أن يكون فاعلاً ومؤثراً فى الفكر الداخلى إلا عبر العلاقات الداخلية لهذا الأخير ، أى عبر القضايا التى يرتبط بها بنسيج من العلاقات الخاصة بمجتمعه المعين والمحددة بظروف هذا المجتمع وخصائص علاقاته الإنتاجية المادية وتاريخيتها المتميزة .وبما أن أولئك الباحثين فى الفكر الفلسفى العربى - الإسلامى ، لا يأخذون بأسلوب النظر هذا فى فهم ديالكتيك العلاقة بين الخارجى والداخلى من أشكال الفكر ، لم يستطعوا أن يدركوا منطق الديالكتيك الداخلى للفكر العربى بعامة والفلسفى منه بخاصة من حيث علاقته بالإسلام ، كفكر وعقيدة ونظام معاً ، أولاً ، وعلاقته ثانياً بقضايا المجتمع العربى - الإسلامى ، التى تميزت بكونها نسيجاً تتداخل فيه ، على نحو بالغ التعقد ، جملة من القضايا الاجتماعية والسياسية مع جملة من القضايا الدينية الاعتقادية والتشريعية . وإذ هم لم يدركوا هذا كله ، لم يستطعوا أن يدركوا - بالضرورة -(منطق ديالكتيك العلاقة بين ماهو داخلى صرفاً فى الفكر العربى هذا ، وماهو خارجى ورد إليه بطريق الفكر الغربى اليونانى أو بطريق الفكر الشرقى الفارسى والهندى . لذلك كله أباح هؤلاء الباحثون لأنفسهم ، بمثل تلك النظرة التبسيطية الميكانيكية ، أن ينكروا



على الفكر العربى ـ الإسلامى أصالته الفلسفية . ولو أنهم أدركوا هذين المنطقين : منطق الداخلى ومنطق علاقته بالفكر الخارجى وفق النظر العلمى ، لكان يسيراً عليهم أن ينفذوا إلى جوهر المسألة ، فيعلموا أن الفلسفة اليونانية ماكان لها أن تؤثر أثرها التاريخى المعروف فى الفلسفة العربية ـ الإسلامية إلا بطريقة الانصهار والتحول التفاعلى الدياليكتيكى عبر « آلية »(MECANISM) الفكر العربى ـ الإسلامى الداخلية ، بحيث اتخذت الفلسفة اليونانية ، عبر هذه العملية ، واقعاً عربياً ـ إسلامياً ، واكتسبت بهذا الواقع حياة جديدة تختلف عن حياتها اليونانية الصرف (٣)

ثالثا ـ أسلوب النظر فى تمايز الثقافات القومية على أساس عرقى (عنصرى) ، وهذا أسوأ الأساليب فى معالجة قضايا الفكر البشرى ، لا من حيث كونه ضرباً من التفكير المثالى وحسب ، بل من حيث كونه ـ فوق ذلك ـ ينطلق من أيديولوجية استعمارية فاشية تصنف مراتب الشعوب تصنيفاً هرمياً تحكمه « نظرية الجنس » التى قذف بها العلم إلى قرار سحيق منذ زمن بهذا الأسلوب العرقى نفسه تعامل مع تراث الفكر العربى ـ الإسلامى فريق من الباحثين ، مستشرقين وعرباً وشرقيين ، ولايزال فريق منهم يتعامل معه بروح من هذا الأسلوب ، عن وعى عند بعض وعن غير وعى عند آخرين (٤).

رابعا ـ أسلوب النظر التاريخى فى التراث . ورغم تفاوت الآخذين بهذا الأسلوب من حيث نوعية المنطلقات المنهجية ، يبقى هناك خط مشترك يجمعهم معاً ، هو رؤية العلاقة بين النتاج الفكرى التراثى والظروف التاريخية التى أنجز فى إطارها هذا النتاج . ويأتى التفاوت بين هؤلاء من اختلافهم فى فهم هذه العلاقة ومدى ماتتناولها من أبعاد جوهرية أو ثانوية أو شكلية سطحية . على هذا الخط المشترك يلتقى الباحثون الذين يقفون من تراث الفكر العربى ـ الإسلامى ، ولاسيما الفلسفى منه ، مواقف إيجابية بوجه عام ، تبرز بينها مواقف تتجاوز الصفة العامة فى إيجابياتها إلى المنهجية العلمية بالتحديد ، أى إنها تنطلق من أسس المنهج المادى التاريخى ومبادئه.

* * *

هذه أربعة من الأساليب الفكرية التى كانت فى أساس الكثير من الممارسات « المعرفية » فى عصور مختلفة ، لاستيعاب ما أنجزه المفكرون العرب ـ الإسلاميون فى العصر الوسيط من أعمال فكرية فى ميادين متنوعة : فى أصول العقائد ، وأصول الفقه ، والتشريع ، والفلسفة ، والعلوم الطبيعية والرياضية ، والأدب الخ .. ولانزعم أن هذه الأساليب الأربعة هى وحدها المتحكمة بتلك

الممارسات أو بغيرها مما لايحصى من ممارسات توجهت إلى هذا التراث غير أننا نستطيع القول بأن الأساليب الثلاثة الأولى منها تنطلق من منهج فكرى واحد ، رغم اختلافها أسلوبياً ، هو - بصفة عامة - المنهج « اللاتاريخى » ، وإن كان الجامع الأساس بينها هو الموقف المثالى ، ومن هذا الموقف ذاته تنبع أساليب أخرى فى النظر إلى كل نتاج فكرى ، ومنه ذاته ينبع « المنهج اللاتاريخى » الذى هو الإطار العام لكل أسلوب من هذا النمط قد نكتشفه خلال البحث.

لقد اعتمدنا التصنيف المنهجى أساساً فى استقصاء مواقف المؤرخين والباحثين من تراثنا الفكرى . ولكن ذلك ليس يغنينا عن الاستعانة بالتصنيف التوضيحى الذى يساعدنا على وضع كل موقف فى حدوده الخاصة تاريخياً وفكرياً وأيديولوجياً . وقد سبق أن حددنا فى إطار هذا التصنيف ثلاثة أقسام من المؤرخين والباحثين هؤلاء: القدماء ، والمحدثين من العرب والشرقيين ، ثم المستشرقين وسواهم من الغربيين ونتجه الآن إلى رؤية المواقف فى حدودها تلك لدى كل قسم على انفراد .

أ- القدماء

تسوقنا موجبات البحث ، لدى استقصاء مواقف القدماء من العرب والشرقيين بعامة ، أن نرجع إلى أبعد الأزمنة حتى الزمن الذى لم يكن التراث فيه قد أصبح تراثاً ، بل كان لايزال حاضراً عصره ، أى الزمن الذى كان لايزال يولد فيه هذا التراث ويتوالد ، ينمو ويتطور ، يختصم فيه الناس ويختصم هو معهم ، يثير فيهم المشكلات ويثيرون هم له المشكلات . منذ ذلك العصر ظهرت المواقف المختلفة منه ، أى قبل أن يصبح تراثاً ، واستمرت تظهر المواقف المختلفة ، منذ أن أصبح تراثاً ، فى كل مكان من الشرق ومن الغرب ، ولاتزال وستبقى تظهر . ففى زمن نشأته ، وفى أزمان تحولاته من الأشكال اللاهوتية الإسلامية الصرف ، إلى الأشكال اللاهوتية - العقلانية (علم الكلام المعتزلى) ، فإلى شكله الفلسفى الأول (الكندى) ، حتى أشكاله الفلسفية الناضجة المستقلة ، من حيث المضمون ، عن الفكر اللاهوتى (بدءا من الفارابى) فى كل زمن من هذه الأزمان كان هذا الفكر - التراث يستثير ويستثار ، يخاصم ويتلقى أنواع الخصومات ، كان «حزبيا» دائما وتتحداه « الحزبية » دائما . وفى كل زمن من هذه الأزمان كان موضوع جدل واختلاف ، وكان الجدل والاختلاف فيه شكلا من أشكال الصراع الفكرى والأيديولوجى ينعكس فيه - بحدود متفاوتة - نوع الصراع الاجتماعى والسياسى فى هذه المرحلة وتلك من تاريخ المجتمع العربى - الإسلامى .

كانت مسألة القدر أول مسألة خاض فيها الفكر العربى - الإسلامى باتجاه عقلى وعلى أساس

« حزبى» أى على قاعدة فكرية ومن منطلق سياسى (معارضة الحكم الأموى) . ومنذ أخذت هذه المسألة تحتل المركز - المحور بين المسائل الفكرية الكبرى المثارة فى مابين القرنين الأول والثانى الهجريين (منتصف القرن السابع) ، أخذت المواقف ، المؤيدة والمعارضة ، تبرز فى ساحة فسيحة يحتدم فيها الصراع على أشده ، واستخدام معارضو الفكر القائل بنفى القدر سلطة الدين فى ارهاب هذا الفكر ، كما فعل المصعب الزبيرى إذ نقل عن مالك بن أنس (96 - 179هـ /-714 795) إنه قال : « الكلام فى الدين أكرهه ، ولم يزل أهل بلدنا يكرهونه وينهون عنه ، نحو الكلام فى رأى جهم والقدر وما أشبه ذلك .." (٥) ، ثم بالغوا فى استخدام الدين ذريعة لتشويه فكرة نفى القدر حتى أطلقوا على دعاتها اسم « القدرية » رغم أن هذا الاسم جدير أن يطلق على من يقول بنقيض فكرتهم ، أى على الجبرية . كان ذلك بقصد تطبيق حديث منسوب إلى النبى على أهل الاختيار ، وهو الحديث القائل :« القدرية مجوس هذه الأمة » . وقد رفض المعتزلة هذه التسمية قائلين :« .. لفظ القدرية يطلق على من يقول بالقدر خيره وشره من الله » (٦) . وهم لايقولون بذلك.

* * *

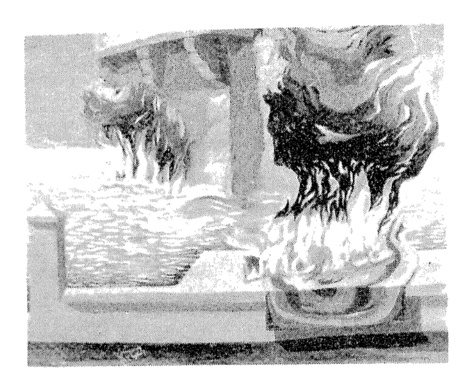
ثم يأتى دور المعتزلة لتطوير الاتجاه العقلى وتقعيده على قواعد نظرية مستمدة من لقاحات فلسفية متنوعة المصادر ، وكان يعنى هذا الاتجاه المعتزلى انعطافاً فى الفكر العربى - الإسلامى من جهتين : جهة تتعلق بمسألة المعرفة ، وجهة تتعلق بترسيخ فكرة حرية الإنسان أى مسئوليته عن أفعاله . من الجهة الأولى كان اتجاه المعتزلة خرقاً لحصر مصدر المعرفة فى واحد ، هو المصدر الإلهى ، إذ أضافوا العقل كمصدر آخر للمعرفة حتى فى مسائل العقيدة . ومن الجهة الثانية أقاموا مفهوم العدالة الإلهية على أساس حرية الإنسان ، أى على نفى الجبرية المطلقة التى تحكم كل أفعاله . وهنا ظهرت مواقف الخصومة لهذا الاتجاه من كلتا جهتيه ، واستخدم الدين كذلك وسيلة لكبح التطلعات العقلانية المعتزلية وعرقلة تطورها نحو الفكر الفلسفى المستقل عن أساسه اللاهوتى . وقد توزعت مواقف الخصومة هذه بين تيارات ثلاثة فى عصر النهوض المعتزلى ، هى : التيار السلفى ، والتيار الحنبلى ، والتيار الأشعرى (٧) . وهذه تشترك جميعاً فى خط واحد يتسم بالعداء للجوانب التقدمية النسبية من أفكار المعتزلة.

* لقد تضافرت كل التيارات المحافظة على اقصاء الفكر المعتزلى نهائياً عن صعيد النشاط الفكرى فى منتصف القرن التاسع الميلادى . ومن أعجب ماحدث ، بعد ذلك ، أن غياب المعتزلة عن مسرح النشاط هذا قد اقترن بغياب المصادر الأصلية لأفكارهم غياباً كلياً عن المكتبة العربية -

الإسلامية ، حتى لم يبق لنا من هذه الأفكار إلا ماصاغه خصومهم صياغة مشتتة مجتزأة ، وحرمت الأجيال اللاحقة قراءة الفكر المعتزلى بصورته الحقيقية الكاملة التى صاغها أهله أنفسهم فى مؤلفاتهم ، ولم يصل إلينا من هذه المؤلفات أخيراً سوى كتاب « الانتصار » لأبى الحسن الخياط ، وبعض المخطوطات التى عثرت عليها بعثة مصرية أوفدت إلى اليمن فى سنوات قريبة سابقة ، وصدر فى مصر من هذه المخطوطات بضعة أجزاء من كتاب « المغنى » للقاضى عبد الجبار المعتزلى(٨) . ومن الواضح لنا الآن أن مواقف العداء هذه لم تكن لتبلغ هذا الحد الأقصى من تغييب تراث المعتزلة ، لولا أن العداء موجه ـ أساساً ـ لنزعة التحرر العقلى الغالبة على هذا التراث .

إن موجة العداء للفكر المعتزلى قد امتدت إلى عصور لاحقة وتشكلت بأشكال من العداء لكل فكر يعتمد النظر العقلى حتى علوم الطبيعة والفلسفة والرياضيات.

*يصف المسعودى موقف المحافظين من أهل السنة ، فى خلافة المتوكل العباسى ، حيال الفكر المعتزلى بقوله أنه بالرغم من كون المتوكل « .. من أظلم الخلفاء فقد مدحه أهل السنة واغتفروا له أفعاله لرفعة المحنة (يقصد « محنة » سيطرة الفكر المعتزلى !) ورأى له كثير من المحدثين رؤى فى المنام تذكر أن الله غفر له »(٩) . ومثل ذلك مايرويه السيوطى عن موقف الفقهاء والمحدثين من أن أحدهم أبا بكر ابن أبى شيبه جلس ، أيام المتوكل ، فى جامع الرصافة وجلس أخوه فى جامع المنصور وحملا الناس على الدعاء للمتوكل والثناء عليه (١٠) . ولكن المسألة تجاوزت هذا الموقف إلى مختلف أشكال الطعن بفكر المعتزلة ، بل إلى تشويهه وتحريفه ، كما فعل الاسفراييني ، مثلاً ، فى تأويل نصوص المعتزلة بشأن مفهوم العدل عندهم فإن شروحهم لهذا المفهوم تضمنت القول بأن قدرة الإنسان مقيدة لقدرة الله (١١) ، وجاء الاسفراييني (وهو أحد كبار المؤلفين الأشعريين) يفسر هذا القول تفسيرا عجيباً . قال إن كون « العباد » يخلقون أفعالهم ، كما يرى المعتزلة ، إنما يؤدى « إلى أن كل واحد منهم ، كالبقة والبعوض والنحلة والنملة والدودة ، خالق : خلق أفعاله ، وليس الله خالقاً لأفعالهم ولاقادراً على شئ من أعمالهم ، وإنه قط لايقدر على شئ مما تفعله الحيوانات كلها ، فأثبتوا (أى المعتزلة) خالقين لايحصون ولايحصرون (..) إنهم مهدوا بذلك طريق القول بالتثنية (١٢) إن تفسيراً كهذا لمفهوم المعتزلة يتجاهل أن كلمة « العباد » فى نصوصهم تعنى البشر وحدهم ، ويتجاهل كون المعتزلة لايمكن نسبة « التثنية » إليهم وهم الذين بلغ من تشددهم فى المحافظة على نقاء مفهوم « التوحيد » حد خوض المعارك العنيفة فى مناهضة أهل التثنية ، فضلاً عن أهل التشبيه والتجسيم.



الهوامش :

١) أصل هذا الزعم يرجع إلى الفيلسوف الفرنسى أرنست رينان فى كتابه « التاريخ العام والمنهج المقارن للغات السامية » - باريس ، جـ٢، ص ١٠ . ونجد مثل هذا الزعم عند المستشرق الألمانى شمويلدرز فى كتاب له بعنوان « بحث فى المذاهب الفلسفية عند العرب » - باريس ١٨٤٢ ص ٣.٢.

٢) عبد الرحمن بدوى : التراث اليونانى فى الحضارة الإسلامية - القاهرة ١٩٦٥.

٣) راجع حسين مروة : الموقف من التراث فى الدين والفلسفة - مجلة « الآداب» ، بيروت العدد الخامس ، السنة ١٨ ، آيار - مايو ١٩٧٠ - أو « دراسات نقدية » ، طبعة ٢ ، دار الفارابى.

٤) سنضع فى مايأتى من المقدمة ، نماذج من استخدام هذا الأسلوب العرقى فى معالجة التراث الفكرى العربى - الإسلامى ، مع مناقشة علمية لهذه النماذج.

٥) ابن عبد البر (463 -هـ / 1070):« مختصر جامع بيان العلم وفضله» ، ص .302

٦) الشهرستانى : الملل والنحل (ط ٢ ، القاهرة) ، ص 49

٧) راجع الشهرستانى : الملل ، ج١ ص 84. ـ 85 ، 87. والسيوطى : تاريخ الخلفاء ، ط مصر : ص 123 . والسبكى : طبقات الشافعية جـ5، ص 217. وأحمد أمين - ضحى الاسلام ، ج3، ص 178 ـ 180 . والأشعرى ، أبو الحسن : مقالات الإسلاميين ، جـ 2 ، ص 584.

٨) راجع على سامى النشار : نشأة التفكير الفلسفى فى الإسلام ، جـ 1 ، ص .684

٩) المسعودى : مروج الذهب ، جـ 2 ، ص 288.

١٠) راجع السيوطى : تاريخ الخلفاء ، ص .128

١١) راجع التفصيل فى الفصل الخامس من القسم الثانى لهذا الكتاب ، الفقرة بعنوان : «حدود القدرة الإلهية » ، ص .768

١٢) الاسفرايينى ، أبو المظفر طاهر بن محمد (ـ 471 هـ /. 1078) : التبصير فى الدين - القاهرة 1955، ص 48.



فى مهرجانات السينما العالمية

نساء إيران تتحدث عن المرارة والقهر والحرية

أمنية فهمى

قد يندهش البعض من أهمية النساء فى السينما الإيرانية ، خاصة أولئك الذين يؤمنون أو يعتقدون أن البلاد الاسلامية تتجاهل المشاعر الخاصة بالنساء وقد يكون هذا الاعتقاد صحيحاً إلى حد ما ، لكن ليس فى إيران ذات الحضارة العريقة ، التى تهتم بالفنون عامة وبالشعر والأدب والزخارف الدقيقة بصفة خاصة ، وكلها فنون تهتم بالمشاعر الإنسانية دون النظر لجنس أو دين أو لون أو هوية.

ورغم اعتراض العائلات الإيرانية على عمل بناتهن فى مجال السينما ، نجد أن ثلث عدد الممثلين الذين ظهروا فى الأفلام الايرانية ، فى أدوار رئيسية أو أدوار مساعدة وعددهم نحو أربعة آلاف شخص خلال الستين عاماً الماضية ، هم من النساء.

وفى مجال صناعة الأفلام يعتبر التمثيل هو الفرع الأكثر جذباً للنساء الإيرانيات ، يليه مجال كتابة السيناريو ، حيث وصل عدد كاتبات السيناريو إلى اثنين وعشرين سيدة ،

ولعل أشهرهن على الإطلاق أنيسة شاه حسينى" و" منيرة رافينبور " و" جاهان خادمالملا " وهن مع غيرهن بدأن العمل فى مجال السينما بعد الثورة الإسلامية ، يليه مجال الإنتاج وتعمل به ست عشرة سيدة ، بعد أن كان عددهن أكبر فى السنوات التى سبقت الثورة ، حيث دخلت الكثير من الممثلات مجال الإنتاج وقتها . لكنهن هجرن العمل السينمائى كله بعد ١٩٧٩.

ورغم أن صناعة السينما فى إيران مازالت تقع تحت طائلة الرقابة والسلطة السياسية ،فموضوعات مثل الحب العفيف أو الخيانة الزوجية أو الصداقات المختلطة ممنوعة نهائياً ، كما أن ظهور النساء على الشاشة بدون غطاء رأس أمر غير مسموح به حتى لو كانت الممثلة تؤدى مشهداً داخل دارها أو حتى نائمة فى فراشها ، الأمر الذى أدى إلى إلغاء المشاهد الداخلية للنساء!! كما أن ظهور ممثلة مع ممثل فى كادر واحد أمر غير مرغوب فيه .. أما لو كان الدور يتطلب أن يؤديا دور زوجين فلابد أن يكونا كذلك فى الحياة الحقيقية؟! لكن رغم كل ذلك .. فإن السينمائيات الإيرانيات أوجدن شكلاً سينمائياً خاصاً بهن ، ورموزاً صنعت مدرسة سينمائية جديدة احتفى بها العالم كله فى السنوات الأخيرة ، وسنتكلم عن هذا الشكل بالتفصيل من خلال كلامنا عن " سميرة مخملباف " .. الابنة الكبرى للمخرج " محسن مخملباف" ، وواحدة من أشهر المخرجات الإيرانيات فى الوقت الحالى، بعد أن حصلت على جائزة تحكيم مهرجان " كان " السينمائى لعام ٢٠٠٢ ، والتى قامت بإخراج أول أفلامها " التفاحة" وعمرها سبعة عشر عاماً . ويدور حول طفلتين معاقتين ذهنياً قام أهلهما بحبسهما داخل المنزل حتى وصلتا إلى سن البلوغ ، تحت رغم حمايتهما من العالم الخارجى لأنهما ليستا طبيعيتين .. لكن مع الوقت اقتنع الأب والأم بضرورة خروج الفتاتين لتشاهدا الناس والحياة .. هنا تبدأ الأحداث الحقيقية للفيلم ، فالفتاتان منبهرتان بكل شئ حولهما ، وعندما وقفتا فى أحد المحال لشراء (الأيس كريم) كانت فرحتهما لايمكن تصورها مما انعكس على المشاهدين .. وقد أصرت " سميرة مخملباف" أن تؤدى الفتاتان الحقيقيتان والأهل الأصليون دورهم الحقيقى فى الفيلم ، دون الاستعانة بأى ممثلين محترفين حتى تصور الفتاتان مشاعرهما بصدق..

و"سميرة مخملباف" المولودة عام ١٩٧٩ هى ابنة الثورة الإسلامية بحق ، لذلك عبرت عن مشاعرها ومشاعر جيلها بالكامل فى معظم أفلامها ، فهو جيل من الأمل يحاول أن يجد له مكاناً ، ويحاول أن يغير من الفكر الجامد المحيط به ، لكى يحيا حياة أفضل .. من هذا المنطلق قامت بإخراج فيلم " السبورة " عام ٢٠٠٠ وتصور فيه مجموعة من المدرسات الإيرانيات من إحدى القرى البعيدة فى كردستان .. عبرن الحدود العراقية الأفغانية وهن

تحملن ألواح الاردواز السوداء على ظهورهن ، بحثاً عن تلاميذ يريدون أن يتعلموا ويحتاجون لهؤلاء المدرسات .. جرتهن طريقتهن فى التدريس بشكل متنقل إلى أعماق البلاد فى المناطق الجبلية الوعرة حيث الحروب الدائرة..

ويصدم المتفرج فى البداية من مشهد المجموعة التى ترتدى السواد وتشق طريقها بصعوبة عبر الجبال الوعرة ، وهى تحمل على ظهورها الألواح السوداء الكبيرة بشكل مرتجل ، لكن مع الوقت يألف المتفرج المشهد .. وتصور " سميرة مخملباف " كيف كانت المدرسات يعتقدن فى البداية - عن سذاجة - أن التلاميذ لايريدون أن يتعلموا ، حتى يكتشفن مع الوقت أن أصعب الدروس لم يأت بعد ، وهو كيف يحيا هؤلاء التلاميذ المتمردون وسط كل هذا الدمار والحروب والخوف . هذا المستوى من الوعى أو الفهم يتكشف للمدرسات وللمتفرج فى ذات الوقت من السبورة نفسها .. التى تستخدم للكتابة أساساً لكن التلاميذ يستخدمونها للنوم فوقها أحياناً ، ولسد الفتحات درءاً للبرد القارص ليلاً ، وكنقالة للجرحى ووسيلة أو ساتر لإتقاء الرصاص أيضاً!!

أما والدتها المخرجة " مارزى ماشكينى" زوجة المخرج " محسن مخملباف " فقد حصلت أيضاً على جائزة خاصة من مهرجان " ترونتو" السينمائى عن فيلمها " يوم أن أصبحت إمرأة" ، الذى يجسد حياة ثلاثة أجيال من النساء داخل إيران مابعد الثورة .. وتبدأ أحداث الجزء الأول من الفيلم بالطفلة " هافا" التى ستبلغ التاسعة من عمرها فى نفس ذات اليوم ، وهى بذلك وحسب القانون الإسلامى للبلاد ستصبح إمرأة .. لقد بقى أمام " هافا " ساعة واحدة لتبلغ التاسعة وقد أخبرتها والدتها أن عليها أن تودع صديقها الطفل " أحمد " إلى حياة مختلفة ومنعزلة عن عالمه ، و" هافا " حزينة لذلك ولاتفهم له سبباً ولاترى له ضرورة .. إنهما صديقان متساويان حتى تلك اللحظة ، فماذا حدث ليغير الأمور ؟

أما الجزء الثانى من نفس الفيلم فيدور حول فتاة فى الثالثة عشرة من عمرها ، تدخل سباقاً للدراجات مع بعض زملائها من الذكور المراهقين من نفس عمرها ، متجاهلة غضب أهلها والجيران وسكان الحى ، حيث وجدت فى نفسها مهارة خاصة فى ركوب الدراجات وقررت أن تجرب حظها .. وتظل تبدل على دراجتها بينما الأهل يطاردونها خوفاً عليها من العقاب والفضيحة ، وعندما تفوز فى النهاية متفوقة على أقرانها تشعر بسعادة بالغة وتتلقى عقاب الكبار بصدر رحب لأنها تشعر بأنها حققت ماظنت أنها قادرة عليه ..

القصة الثالثة تخص إمرأة ناضجة ، وتذهب بمفردها فى رحلة طويلة وتظل تقود سيارتها

وهى متوجسة حتى تصل إلى أحد الشواطئ البعيدة المهجورة ، وفى البداية يظن المشاهد أنها تريد أن تهرب من شئ معين أو شخص ما أو أنها تريد أن تفعل شيئاً مخالفاً ، لكن المتفرج يفاجأ بأنها فقط تريد أن تمارس حياتها بصورة طبيعية ، وكل ماتحلم به هو لحظات من السعادة والانفراد والسباحة دون أن تخشى الرقابة أو العقاب !!

بساطة الفيلم بأجزائه الثلاثة ، لاتخفى شعوراً عميقاً بالمرارة ، وإحساساً أعمق بالقيود التى تمارس على النساء داخل إيران .. كما أنه ينقل رسالة واضحة تؤكد أن مصير النساء ومنهن المخرجات والعاملات بالمجال السينمائى مرهون بالحكم الإصلاحى واستمراره من عدمه.

وفى هذا السياق لابد أن نذكر واقعة غريبة تعرضت لها الممثلة الإيرانية المعروفة ، جوهر خرانديش" وهى من جيل ممثلات ماقبل الثورة وتبلغ الخمسين من العمر ، والتى وجهت لها السلطات القضائية تهمة تعكير السلام الاجتماعى ، عندما انفعلت وأظهرت عواطفها بعد فوز المخرج " على زمانى" ويبلغ من العمر عشرين عاماً – وهو من تلاميذ زوجها ـ بجائزة أحسن مخرج فى أحد مهرجانات السينما بمدينة (يزد) شمال إيران ، وقامت بتقبيله على جبهته أمام الناس . وقد حكم على المخرج بدفع غرامة مالية كبيرة ، أما هى فقد أمر القاضى بحبسها وأصر على تنفيذ الحكم رغم أنها قدمت اعتذاراً رسمياً ، وعللت تصرفها بأنه مجرد تهنئة من أم لابنها !!.

ومن أجرأ الأفلام التى تناولت أوضاع المرأة فى إيران اليوم – إيران مابعد ثورة فجر الإسلامية ـ رغم أن مخرجها رجل .. فيلم " دائرة" للمخرج " جعفر بناهى" .. وفيلم " دائرة " يختلف عن أى فيلم إيرانى آخر ويعتبر خطوة جديدة تبتعد بالفيلم الإيرانى عن الرموز الشعرية المسيطرة عليه ، ويقترب من نموذج أكثر مباشرة فى الرواية السينمائية ، وقد حصل على جائزة الأسد الذهبى من مهرجان فينسيا عام ٢٠٠٠ ، والفيلم يستعرض عدداً من القصص المتقاطعة لعدد من النساء اللاتى تعارفن وتصادقن فى السجن .. ويبدأ الفيلم بمشهد قاتم عندما تضع إحدى الشابات مولودها الأول وتتبين والدتها أنه طفلة (أنثى) فتخاف من إخبار أهل زوج ابنتها فتهرب من المستشفى تاركة ابنتها تواجه مصيرها البائس عندما يعلم الزوج وأهله بحقيقة المولود ، وفى طريقها للخارج تقابل ثلاث فتيات يبحثن عن عملة معدنية تصلح لإجراء مكالمة من تليفون عمومى .. وعندما تذهب إحداهن لأحد المحال يتم القبض عليها لأنها لاترتدى الشادور (الزى النسائى الإسلامى) رغم أنها خرجت من السجن فى ذات



«الطلاق على الطريقة اليابانية» - إيران - انجلترا

الصباح ويكتشف المخرج أن زميلاتيها ترغبن فى السفر إلى بلدة إحداهن فى الشمال حيث لا أحد يعرفهن هناك .. وفى محاولتهن للهرب تتعرضن لمشاكل كثيرة بسبب عدم وجود بطاقة هوية معهن ، وعندما تلجئن إلى زميلة أفرج عنها تتنكر لهن خوفاً من زوجها الذى لايعرف شيئاً عن وجودها بالسجن.. وينتهى الفيلم بمشهد بالغ الدلالة حيث تضطر إحدى البطلات بالتضحية بابنتها الطفلة وتركها فى الطريق حتى لايكتشف أهلها أنها حملت سفاحاً ، وتركب سيارة ملاكى مع رجل غريب عنها فقط لتكتشف أنه مدير الشرطة وأن لا أحد قادر على معاقبتها وهى معه ، بينما تتعرض امرأة أخرى للقبض عليها أمام أعين البطلة ، لأنها ركبت مع رجل غريب عنها لاتربطه بها صلة شرعية ، ويتم الإفراج عن الرجل بعد لومه ، لكن يتم اعتقال البطلة التى تعامل بمنتهى المهانة .. وفى السجن نكتشف وجود جميع البطلات بمن فيهن السيدة الشابة التى وضعت طفلة أنثى فى بداية الفيلم !!

الفيلم يحمل طابع الرحلة مثله مثل معظم الأفلام الإيرانية .. لقد بدأت الرحلة فى المستشفى لحظة الميلاد وانتهت فى حجرة الحجز بقسم الشرطة حيث التقت البطلات مرة أخرى..

« يد فى آخر العالم » ورهان الذاكرة

عيد عبد الحليم

الشاعر العمانى « سيف الرحبى » شاعر عربى ذو صوت شعرى متميز يتجلى ذلك عبر دواوينه « نورسة الجنون » ، و« الجبل الأخضر » ورأس المسافر»، و« مدية واحدة لاتكفى لذبح عصفور» ، و« رجل من الربع الخالى »و « ذاكرة الشتات » ، و «معجم الجحيم » ، و« الجندى الذى رأى الطائر فى نومه » . حيث يجول « الرحبى » عبر أمكنة الروح متحصناً بذاكرة قادرة على تفتيت اللحظة ببعديها الآنى والماضوى، من خلال بصيرة شعرية تتكأ على تفاصيل وجدانية وشعورية وذهنية فى بعض الأحيان حيث يتحول المحسوس إلى بنية نصية مجردة ، والواقعى إلى فعل ذهنى معتمداً على المزاوجة والمراوحة بين الأشياء المحسوسة والمتخيل الشعرى ، فى أفق خلاق تنتجه المحاورة الجمالية بين مفردات الوجود الإنسانى ، وتتضح هذه الرؤية ـ كثيراً ـ فى ديوانه « يد فى آخر العالم » ـ حيث تصهر معطيات الوجود داخل تفاعلات الذاكرة ، مما يخلق نوعاً من الاحتفاء بالشخوص الطبيعية والأبعاد المكانية والزمانية ، فى تضافر حميم :

هذا الوجه الموؤود فى قعر غرائزى
فى ظلام ذاكرتى
أعرفه جيداً ، أعرف إيماءاته الرشيقة

فى الأثير ، أعرف خطوته
التى تخبئ الكنز ، ذهاباً وإياباً
من غير معرفة ولاجهل ، حالة ،
الخطر ، المتدلية من لهاة
برق الجنوب المشرع على النافذة
يجعل ملامحه متلعثمة وخجلة كأنما نزل
للحظة من قريته ، مخضباً بالحناء

ويضم ديوان « يد فى آخر العالم » قصيدة واحدة مكونة من ثمانية عشر مقطعا ، مذيلة بثلاثة مقاطع منفصلة ، وإن اندرجت فى دفقتها الشعورية فى القصيدة الأم ، رغم أنى أرى أن وضع عناوين للمقاطع الأخيرة قد جاء بلا مبرر .

* * *

وتتمثل الرؤية الجمالية عند « سيف الرحبى» فى محاولة العثور على تكوينات أسلوبية تصبح - فى حد ذاتها - إيقاعاً فنياً يؤكد على ميكانيزم العمل الشعرى الراهن ، وتنطلق هذه الرؤية من صنع الحياة الخاصة للشاعر من خلال تيمة الاستقصاء لمفردات الذات حيث التأكيد الشعرى على حضور « الأنا» بكل تفاصيلها، وصياغة الأحداث اليومية وتبيان الاحساس اليومى بالوجود فى إطار من المكاشفة وابتكار اللحظات من الزمن الدائرى والذى يعنى فى الأساس التأكيد على الزمن النصى بوصفه كينونة لحظية ، وهذه الكينونة ترتبط عند « الرحبى» باللحظة البدائية ، وبعناصر التوحش ، الذى يأتى عنده كتعبير مضاد للهاث الواقع الصاروخى المعاصر ، ذلك الواقع الذى يجبرنا على الانسلاخ من حركته ، لكى نتحرك وفقاً لنداءات الحنين وقوانين التذكر وأناشيد الرغبة للوصول إلى الجذور الإنسانية الأولى ، وعوالم التلقائية والحرية :

بقايا صباح مازلت أحلم بقدومه
ربما يحمل لى أخباراً
من ربوع المغرب
من بغداد والقاهرة
من بيروت
صباح أحلم فيه بكتابة قصيدة
لاتنسف العالم لكنها تزيح قليلاً
صخرة الحنين

ويمثل الغياب بنسبية أساسية دالة فى كل نصوص الرحبى ، مثلما يشكل محوراً أساسياً فى حياته ورغباته وفى الأماكن التى عاش فيها ، فهو شاعر لاتكبله الأمكنة – من خلال فعل الإقامة وإن بقى من أطيافها فى أعماقه بعض من أوراد النوستولوجيا لتلك الأمكنة ، فصار الحضور مرهوناً بدلالات الغياب فلا يكاد يتجلى الحضور ويأخذ مكانه فى اللحظة وفى النص وفى الحياة إلا ويأتى الغياب ليسيطر ويطغى ويهيمن :

كانوا هناك يرتبون أحلامهم
كلما مرت غيمة
أو جناح قطاة
ركلوا الأودية بحوافر أفراسهم
ذابوا فى هباء المغيب
كانوا هناك
يرتبون الصباحات على عجل
ويرشقون سماءً جارحةً
بنظرات ملؤها التوجس
والوحشة
مشدودين إلى مدارات
لم يعد لها من حنين
وجبال أفرغ الطير أحشاءه فى سفوحها

* * *

وهذا الغياب الذى يغلف نصوص الديوان يأخذنا فى دلالاته المتعددة إلى غياب أكبر فهو ليس غياباً ذاتياً – فقط.، بل هو غياب يبرزه الوعى اليقظ فى إطار جماعى . يتجلى ذلك فى قوله فى المقطع الرابع :

الشجر الذابل أمام بيتى / أرقبه كل صباح / وأنا ذاهب إلى العمل / وكل مساء وأنا قادم من البحر / وقد أرخى سدول أيامه بيأس أمام سطوة الجبال
والمآذن والعمائر المأهولة بالجفاف
وبمخلوقات « زنخة» تفوح من أردانها جثة العالم
المتفسخة منذ قرون ».

هناك إذن صدع مافى العلاقة بين الذات الشاعرة ووسطها المحيط بها حيث تعانى من عدم الانسجام التام مع الوطن والعالم ، فهناك ـ دائماً ـ جرح خفى يغذى هذه

العلاقة الشائكة باستمرار ، ومن هنا تنبجس العبارة الشعرية ويولد شجن القصيدة ، وهناك مستويات وتجليات للاغتراب المكانى والروحى، وإذا كان « هولدرين» يرى « أن الروح تحب الهجرة والنسيان » فإن الرحبى يصف روحه بأنها مجروحة وجارحة فى أن:—

رعايا الذاكرة ينهارون كما تنهار
القمم الثلجية فى مخيلة المغامر،
هكذا دفعة واحدة
يقطع اليمام هديله إلى الأبد
كما ذهبت أنت ذات دهر
أمام البناية الضخمة فى المدينة النفطية،
من غير كلمة ولاتلويحة وداع
يختفى المشهد بكامله
كأنما ابتلعته الأرض
أو اختطفته عنقاء الجبال

* * *

ولعل أحد العوامل المهمة التى تغذى هذا الجرح هو استحضار ونبش الذاكرة الجمعية العربية مما يساعد على إذكائه فما اختلط من كثبان وبراكين وجبال يشكل عالم الأمكنة الأولى حيث الدهشة والطفولة ، ولايكتفى الشاعر بنقل وسرد تفاصيل تاريخية بقدر ماينقل العالم من بنيته الساكنة إلى بنية الدلالات المتحركة فشم رائحة الماضى البعيد خلف أوار الحلم المحترق ، فتتراكم الصورة الشعرية مشكلة علاذقيات النص بالبيئة بما يرتبط بها من هزائم وجودية لبشر بسطاء فقدوا أحلامهم خلف ظلال صراعات لادخل لهم بها :

تلك قصارى أيامهم
ينزل المطر على الصحراء
يصغون إلى حنينهم
ينفجر مع البرق ، صواعق
تقصف الطرقات
لبكاء أطفالهم الذين لم يولدوا
للبهجة تعبر رؤوسهم نحو سمر بعيد

للطفولة

يتسلقون ظلالها فى الردهة المظلمة

ويبدو أن شاعرنا قد شغل كثيراً بأبجديات الذاكرة الرعوية ، رغم ترحاله الدائم ، فهو لايريم ولايستقر فى مكان ، وفى هذا الجو عادة ماتؤسس الذات مفارقتها الأسطورية عبر شعرية هى أقرب إلى الملحمة ، فهو لايريد - على ما أعتقد - أن يضعنا أمام المكان بتاريخه وناسه ، وإنما يريد أن يجعل هناك نوعاً من الحضور المضاد فى محاولة لتفكيك الزمن ، وهو بمعنى آخر مايسميه « بلوم» - « السمو المضاد »-حيث يحاول الشاعر أن يوسع من قوة السلف باتجاه مبدأ أعظم من مبدئه » باعتبار أن الذاكرة ليست مبدأ الماضى إلا بوصفها مبدأ الحاضر الممتد :

لاتحمل فكرة ، كالنظر فى المرآة مثلاً

فتح شباك ، إطلاق نظرة على جبل الأحقاف

وصرعى الأوبئة والسراب ،

استعادة كوابيس البارحة

التى أصبحت محض عادة مضجرة

كسائر أوجه الحياة

* * *

والذاكرة - عند « الرحبى» - ليست مرحة على كل حال ، فهى ذاكرة شجنية مفرداتها الأشباح والموت ، والنجوم المتهاوية ، والغيوم الجريحة ، والهذيان ، واليأس ، والندم ، والجزر المستحيلة .. إلخ » ، وكأن المقول الشعرى مرتبط ارتباطاً سيكولوجياً بأبعاد زمانية تستحضر - دائماً - علاقات سياقية لتأسيس أفق احتمالى لتبرير هزائم الواقع الآنى التى تحاصر الذات الشاعرة وتجعلها دائماً فى عزلة شبه أبدية :

يد وحيدة تلوح فى البعيد

وحيدة من غير مسافرين

ولاأرصفة أو قطارات

يد وحيدة جاثمة بوحشتها

تلوح فى ليل الأجداث

وحيدة فى غيمها الجريح

يد الشاعر أو القرصان

أو بائع اليانصيب

شعر

بياض يزهو بالملائكة

أمال موسى (تونس)

قل لى كلاماً
تطير بعد اندلاقه
أسراب الحمام
قطناً مزهواً بالملائكة
قل لى كلاما
يفتتنى فصوصاً
ويرتب لى هيئة
من مجاز ورمز وحكم
وماء غزير يثير أطرافى
ويرمى بأقواسى
الدالة على اخضرارى
رمحاً فى الجسد المستقيم
قل لى كلاماً
يزيد فى إعجازى
ويفصل بينى وبينى
بسحر سندسى كالمقام
طافح النشوة كالذكر المؤنث
قل لى كلاماً
قليل الحزن
لأستطيع التنفس
كلاماً تتوضأ فى أنهاره ذات المقدس
كلاماً لاينام خالقه
مثلما
أنام

توحد

طير ضم طيره
أيقظ شهوته النائمة
ورشها بذرة جمر
عاشا صداقة الروح للجسد
ضحك الطائران

حتى احمرت الغرفة
واحترق خشب السرير
فداءً
لحطاب
لا حطاب إلا هو

العيش بثلاثة عناصر

خذ الليل كله
واعطنى نجمة الصباح
هدية لصبرى
فكم أغرتنى قصائد ملكت مافاتنى
وأبقتنى ضالة
فى صمت ذاك الشتاء
اسمعْ صورتى ترددنى
كأهازيج قبيلة
خيامها تناطح السحب
أتحسس رخامى
طرفاً طرفاً
وعند سكرة الألم
قطرة قطرة
فإذا بترابى يرفرف
وأنا الغارقة فى مائى
أنادى الأصداف
الحيتان
والقلائد
والسفن التى صيرتها العرائس
غرقا فى البحر
أنا المحترقة
ببرد وحشتى
نفخت فى الجمر لأثير ماء السماء.
فقدت نارى
فأمسيت من ثلاثة
أعيش ، عنصرى المفقود

تحـاصـرنى الحـجب أمـام كل زرقـة
ضاحكة
ويتكثف البنفسج فى عينى ، الملونتين
بالفقد.
ولكنى صديقة الماء
أنثاه
مبتلية بأسئلتى
فلم يزرنى الأمين
ولم أطمئن

سكارى الصحو

ضرب فى الأرض
خلسة
قبل أن يقع فى نفسى
من بدونى
ليطوف عالم هرم
ويتذوق الألم من خلايا النحل
وحين أجلسته فى قصيدتى
بطلاً
يمشى فوق ماء يتدفق
وناولته الكأس تلو النشوة
فى حضرة سكارى الصحو
أدرك خاصرتى
كوليد ضجر عتمة البطون
وأطلق ضحكة طويلة
على رسوم الأرض المتحركة
حين سميته
فارس الروح
بارز فحولته
كأنه نائلة
واحترق كله
حتى الشفاعة

شعر

نهــــاية

محمد السيد اسماعيل

لم يكن الأمر على ماتصورنا دائما
أن نخرج ـ كل يوم ـ فى بساطة فلاح
كى نكون أول من يرى الأرض
وهى تخرج ـ لتوها ـ من قبضة الله
وأن نعود مرة أخرى
كى نعاين كل شئ :
الماشية فى الحظيرة
الأطفال فى الأسرة العطنة
المئذنة العالية التى تخترق الأفق
مثل رمح أسطورى
صوت أبى الذي يشتد ضعفاً
النواة التى تسند البيت

لم يكن الأمر على ماتصورنا هكذا
لأننى اكتشفت للحظة مباغتة
أننى أفقد نصف دمائى
بين الذهاب والرجوع
وأننى أنوء تقريباً .. تحت عشرة
أطنان من الرمال
وليس أمامى سوى أن أنهار .. هكذا
.. مرة واحدة
صانعاً كومة عالية
تصلح أن تكون " تبة "
لاينقصها سوى بعض " الغزاة "
وقطاع الطريق

شعـــر

والــــدى

سمير الأمير

ازاى عايزنى ارسم فرح
واعيش كأنى بعيش
ماتفكنى الأول عشان اتولد
واشم ورد الحياة
واعرف بجد ان كنت خلفتنى
والا احنا الاتنين شايلين قرون العبط

كل الكتب ع الرف مرصوصة
وعلى النواصى هناك حديد تسليح وصوت مكتوم
طب فك نفسك كده
ورينى ازاى حتقدر تقوم
والا الكلام أسهل
عايزنى اتكلم؟
وعايزنى اقوم بدرى واصلى العيد
واقرا اللى مقرى ألف مرة واعيد .

ياولدى سيبنى ابص ف مرايه
واخصم ملامحى من حساب القرايه
واشوف فاضلى كام

قصة قصيرة

لحظة سحر

أحمد سعيد

صرخة ملتذة مكتومة ، تفترش سكون الأحاسيس البكر ، تسحب منها معالم الطفولة الضئيلة المحدودة ، وترتشف بلا رواء رحيق المغامر السرمدية لهذا العالم ، وجسدها - قبل لحظات - عيونه جامدة تحت الثقل ، الآن يحلق بخفة الأثير.

يا إلهى .. استفاقت من الخدر الرهيب - الذى طالما طاردها وكانت تهرب - على صوت أخيها ، يصرخ معنفا ، قابضا بكفه الثقيل على ديوانها الرومانسى ، الذى استعارته من صديقتها ، خطفه ، طوحه من نافذة الصالون ، تابعته بلهفة وتحسر ، يهبط فوق أسفلت الطريق ، تمزقه الإطارات السوداء ، انسحبت من تعنيفه وضجيجه ، وبشقاوة طلبة ثانوى استجمعت أعصابها ، وتسللت بخفة إلى حجرتها وبقايا صخبه تتراجع خلفها ، امتدت يدها بالمفتاح إلى دولابها ، أخرجت بارتجاف الأجندة الوردية التى يتزاحم فوق غلافها قلوب ملونة تحيط صورة حليم تحتها أهواك ..

انفردت فوق سريرها بأجندتها الوردية التى تحتضن أسرارها الصغيرة ، وبالأثير الباقى لتلك اللحظة احتضنتها ، استرجعت صدى عيون صديقتها وهى ترفع غطاء الدرج المدرسى الداخلى أثناء الحصة ، لمحت صوراً ورسوماً لقلوب بخط اليد تخترقها السهام وحروف بالإنجليزية i love you ، وستيكرز لحليم يحتضن

صباح ، أخبرتها ببهجة جسدية هامسة .. أقولك سر .. اللى حصل .. لايمكن أوصف لكى .. حزرى .. ياااه .. خاطبتها بهمس خجول بكر ... يسطع بفضولها .. مالك بتخبى على .. ايه اللى حصل ؟! عارفة .. هاأقولك .. كأنه .. قاطعتها المعلمة المحجبة بحاجبها المتضخم ، والزغب الزاحف فوق شفتيها المشققة وخطوط التجاعيد تنتشر تحت عيونها الجامدة .. اطلعى على السبورة .. كنت بأقول إيه .. ارتبكت .. ضغطت المعلمة شفتيها .. كمان روج ياقليلة التربية .. اسبقينى لغرفة الناظرة .. ثلاثة أيام رفت واستدعاء لولى الأمر .. رغم ذلك حين قابلتها أثناء الفسحة .. عارفة إيه اللى حصل .. دارت حول نفسها بخفة وحيوية .. باسنى .. خفضت رأسها وداخلها يداعبها بالفضول .. لكن .. هووا .. أنت .. ازاى حصل .. عيب .. بس .. حسيتى بايه .. قفزت صديقتها طائرة بجسدها مع الهواء .. قطعت أمها المشهد ، وتلاشى الأثير .. بتذاكرى .. أخوكى قلبه عليكى .. الإمتحانات قربت .. تستمتع بلا مبالاة ... وبعدين شعر أيه .. أقفلت الأجندة الوردية وخبأتها بكفها .. أيوه .. بلاش قلة أدب .. تمتمت بكلمات مبهمة .. طيب .. تود لو تحكى لأمها عن مشاهد البهجة .. عن الأحاسيس الجديدة التى تحيط بها ، تسألها ببساطة عما يحدث داخلها ... ماما ... استدارت .. أيوه فيه حاجة ، ارتسم شبح الخوف فى الغرفة أن تفضح بهجتها وترى أمها - الريفية المتصلبة - الوهج الداخلى الذى أشعل أنوثتها .. ردت .. لا ولا حاجة .. هزها صفق الباب واقشعر جسدها بتيار الهواء الساخن الذى خلفته الأم ، ظللها الهاجس الذى اقتحمها بتأنيب كلمات المعلمة المحجبة ، وهى تتحرك بجلباب رمادى فضفاض ... الحب وسواس من الشيطان .. لا المرأة عورة ، وفتنة للرجال .. أيوه كلها عورة .. والبنت اللى تبص لولد تستغفر .. قاطعتها تلميذة عيونها بريئة ، وقلب ذهبى يسكن فوق صدرها ، ويداعب الهواء خصلات شعرها .. طيب لو مسكت أيده .. تبسمن بخجل أجابت بحُدة .. ده يبقى من الكبائر .. سامعين ... كبيرة .. خرام .. حرام ... سامعين .. انسحب الهاجس الوحشى ، تتمدد فوق السرير ساهمة بعيونها محاضنة أسرارها تقهقر التأنيب المتردد داخلها ، خلف ابتسامته الجذابة ، وملاحقته ، وجرأته حين اعترضها بزيه المدرسى المتأنق ، صعد وراءها المينى باص جلس بجوارها ، ارتجفت ، شدت حقيبتها بقوة إلى صدرها وهربت بإرتعاشها عبر الزجاج المشروخ ... يا آنسة .. التفتت .. أنا .. اسمى .. من شهر شفتك فى المجموعة وبنبرة متقطعة مترددة .. كل يوم استناكى على المحطة وأراقبك من بعيد عرفت اسمك .. لمياء .. شدت حقيبتها تكتم صوت الدقات ، خفضت عيونها ومسحت بأطراف كفها حبات الندى المالح فوق جبهتها .. مد يده بظرف ملون مزركش

.. ترددت .. احمر وجهها .. أنا كاتب لك كل حاجة .. دسه فى يدها .. قام .. بأى سلام .. نظرت إليه بفزع .. ابتلعت لعابها .. نظرت حولها ... خبأته فى أعماق الحقيبة ، وضعت فوقه الكتب ، والكراسات والسندوتشات .. نزلت قبل المحطة ومشت بإرتباك للمدرسة .. طمأنتها صديقتها .. ياعبيطة ماتخافيش .. مفيش أحلى من الحب .. فى الأول كده بتبقى كل حاجة متلخبطة .. شوفى صورته .. شبه عمرو دياب .. قبلتها بحنان وتأوه .. بيموت فىّ .. تقلبت بقميصها الزهرى محتضنة أجندتها الوردية التى تحوى رسائله وصوره .. جاء صوت الناظرة محذرا البنت اللى تعرف ولد ناقصة تربية .. صبغ الشعر ممنوع .. عدلت حجابها ناظرة اليهن .. قلة أدب ومسخرة .. قلبت حقائبهن ، كسرت المرايا ، ومشابك الشعر الملونة ، وأصابع الروج .

استعادت بهجة صديقتها وهى تستحلب طعم البوسة الخفيفة الأولى فوق شفتيها ، انتفض جسدها بذلك التنميل الذى غيب وعيها بأحاسيس فضية برجفة أول بوسة .

يااه .. لمحت أخيها يتلصص بخفة ممسكاً بالتليفون .. اطمأن لنومها المصطنع .. سمعته يهمس .. أيوه .. صدقينى أنا بحبك .. لازم نتقابل بكره .. وحشتينى .. هاشوفك .. انزعج لتقلبها المصطنع .. بكره أقولك .. بحبك .. ياللا باى .. وانسحب بتليفونه الذى يحتكر الرد عليه .. ابتسمت .. طردت شبحه .. الآن تستوعب ابتهاجهن ، وتستشعر ألق عيونهن ، وهن يحكين عن مقارنتهن المراهقة بين وسامة أصحابهن ، ومصطفى قمر وحسين فهمى وحتى رشدى أباظة.

ناولها الدبة الرمادية وسلسلة ذهبية يتدلى منها أول حرف من اسمها داخل قلب ، وكارت برسوم عصافير وقلوب .. شبك كفه بخجل فى كفها المرتعش ، وخلف الأشجار الخضراء اقترب منها .. تقابلت عيونهما .. وقعت الكتب المدرسية ساحبة معها الوقت المسروق من يوم مدرسى ممل وطويل .. عبر حوائط الحصار .. يا إلهى .. اغمضت عينيها .. وتقلبت بأجندتها الوردية تسترجع ، تستحلب شفتيها لتشبع من ذلك الخدر .. تسكنه خلاياها ، وانبثقت حبات العرق الأنثوية تغسل حذر الأم .. نفاق أخيها .. ونبرة المعلمة المحجبة .. واطمأنت وهى تعض شفتيها .. وصفها لذلك الوهج والارتعاش بأنها ... . كبيرة .



الواقع والأسطورة

عن دار البستانى للنشر والتوزيع صدر للناقد د. ماهر شفيق فريد كتاب « دراسات فى الشعر العربى المعاصر الواقع والأسطورة » تضمن عدة مقالات حول خريطة الشعر العربى الحديث متناولاً بعض منطلقات التعبير لدى كل من أدونيس وأحمد عبد المعطى حجازى ونزار قبانى وحسن فتح الباب وفاروق شوشة وصلاح عبد الصبور ومحمد إبراهيم أبو سنة ، بالإضافة إلى دراسة مطولة حول « الشعر المصرى وثورة يوليو » وأخرى عن «شعراء السبعينيات».

حمام الروح

« مسكو حمام الروح» عنوان الديوان الجديد للشاعر سلامة عيسى والصادر ـ حديثاً عن إقليم القاهرة الكبرى وشمال الصعيد الثقافى.

تتميز قصائد الديوان بذلك الحس الشفيف الذى يلامس التجربة الإنسانية فى لغة بسيطة تستفيد من المنجز الشعبى ـ كثيراً ـ.

من أجواء الديوان :

ياترى قلبى ماعدش له مكان

يصاحب الدراويش

يرجع من السفر

أتمنى أكون بلا أحزان

لا لإسرائيل

يرصد أيمن إسماعيل فى ديوانه « لا لإسرائيل» أهم قضايا الواقع العربى ، فى إطار من الشعر الساخر يتضح ذلك من دلالة العنوان الرئيسى للديوان والعناوين الداخلية ومنها « هجوم عربى على إسرائيل » و« ياسيد بوش» و« كلمة لكل العالم » و« نشرة الأخبار»

ويتضمن الديوان عدة قصائد بالعامية وأخرى بالفصحى، ومن أجوائه :

مديون وخايف من دينه

ياخلق ياللى معندينه
والحظ محناش لقينه
أصبحت موكوس م العالى

عذبة والواقع الأردنى

عذبة هى الرواية الأخيرة للأديب الأردنى صبحى فحماوى بعد عدة مجموعات قصصية منها « موسم الحصاد الحزين »، و« رجل غير قابل للتعقيد » و« صبايا فى العشرينات» تتكئ الرواية فى بنيتها السردية على لغة حكائية تعبر عن تشابكات الواقع الإنسانى من خلال الربط بين ماهو عام وماهو خاص.

حسناء فى سجن سقراط

صدر للكاتب المسرحى والمترجم أحمد عثمان مسرحية « حسناء فى سجن سقراط » عن دار الثقافة للنشر والتوزيع ، تدور أحداثها فى إطار تاريخى ، وقد صدر للمؤلف من قبل عدة مسرحيات منها « كليوباترا تعشق السلام » و« عودة البصر للضيف الأعمى» و «الحكيم لايمشى فى الزفة» و« معيز البهستا » و« زفاف عروس المكتابت» و«هرقل فوق جبل أوتيا » و« السحب » والمسرحيتان الأخيرتان ترجمة عن أرتيوفايش وسوفوكليس.

أمتنا وجوائز نوبل

« أمتنا وجوائز نوبل » هو عنوان الكتاب الذى صدر عن مكتبة الفتح للإعلام العربى للدكتورمحمد حسين أبو العلا ، والذى يعالج من خلاله ملابسات وكواليس الجائزة الأشهر فى العالم ، ومايحيطها من مخاوف تجعلها بعيدة ومستبعدة عن الأمة العربية نظراً لوجود مايسمى بملعب الذكاء الكونى الذى يقوم على الاستقطاب بصورة أولى.

القمع والصورة

عن مكتبة مدبولى صدر كتاب « القمع والصورة - ريجيس دوبريه .. حوار وتداعيات» للدكتور علاء طاهر ، والذى يناقش من خلاله علاقة القمع بالصورة ، مؤكداً أن هذا المزيج يعد أكثر خطورة بما فيه من مسخ للقيم الإنسانية وتحويلها إلى شيء غير موجود ، فى ظل

فوضى الثورة الالكترونية التى رغم جمالياتها ـ يوجد بها جانب سلبى يدمر وعى الإنسان المعاصر.

أعلام الإسكندرية فى العصر الإسلامى

عن سلسلة « ذاكرة الكتابة » بالهيئة العامة لقصور الثقافة والتى يشرف عليها الناقد الكبير رجاء النقاش صدر كتاب « أعلام الإسكندرية فى العصر الإسلامى » تأليف د. جمال الدين الشيال . ١٩١١ - ١٩٦٧والذى يتناول فى كتابه رواد الفكر الإسلامى الذين سكنوا مدينة الإسكندرية أمثال ابن عطاء الله السكندرى ، وأبو العباس المرسى ، وأبو الحسن الشاذلى ، وعبد الله النديم ، والصحابى الجليل أبو الدرداء وغيرهم.

منتهى البدء الأخير

عن سلسلة « إبداعات » صدر الديوان الشعرى الأول للشاعرة فاطمة هزاع ، وتنحاز لغة الديوان إلى بساطة اللغة العامية وجمالياتها الرؤيوية دون غوص فى التهويمات الحداثية ، محاولة خلق تجربة تخصها ، ومن أجواء الديوان :

« أنا كام ؟/ كام ؟/ بقيت مليون / بقيت ملايين / بقيت بليون / وشايفة بداية الدنيا / وآخر الكون .

على منصور.. خيال مراهق

تتميز تجربة الشاعر على منصور بتلك الشفافية الشعرية التى تتماس مع المنجز اليومى مضفرة بطابع صوفى ، يأخذ باللغة إلى فضاءات رحبة ، تجلي ذلك عبر دواوينه « الفقراء ينهزمون فى تجربة العشق» و«وردة الكيمياء الجميلة » و« على بعد خطوة » و« ثمة موسيقى تنزل السلالم » و« عصافير خضراء قرب بحيرة صافية » و« عشر نجمات لمساء وحيد» ، ويمتد هذا الخيط الإبداعى فى ديوانه الأخير « خيال مراهق » والذى صدر على نفقته الخاصة.

من أجواء الديوان :

بينما لايعرف الواحد هل يبكى

أم يبكى !!





بينما الدنيا كذلك / يحدث أن يفاجأ
نبت بزفة مطر / أو ترتعش روح
على رنين هاتف .

حكايات وردة

صدر للكاتب محمد الدمنهورى مجموعة قصصية للأطفال تحت عنوان « حكايات وردة ». بتقديم للشاعر صلاح اللقانى والذى أشار فيه إلى أن الدمنهورى مثقف وصديق للمثقفين وأنه يعتز بالصفة الثانية أكثر من اعتزازه بالصفة الأولى ».

تتضمن المجموعة عدة قصص منها « تعالى نرسم قرص الشمس » و« أمنيات وردة » و« إجابة السؤال » و« شقاوة » تتميز القصص ببراءة اللغة وفطرية الرؤية.

أحلام الطيور

« أحلام الطيور » أحدث إصدارات الشاعر على حسن الجمال وقد صدر له من «همسات قلب» ، تتضمن الديوان عدة قصائد منها « قالت » و« لماذا اللقاء » و« نشيد الحياة » وغيرها .

تغلف معظم القصائد رؤية رومانسية عبر لغة شفافة تستفيد ـ كثيراً ـ من منجز القصيدة التقليدية.

الصفحة الأخيرة

نحو مؤسسة للدراسات النقدية والفكرية

د. صلاح السروى

لقد تعاظم الاحساس فى الآونة الأخيرة بوجود أزمة خانقة فى الثقافة المصرية ، بحيث بدت هذه الثقافة وقد خلت من الأسماء الكبيرة التى يمكنها أن تشغل الفراغ الذى خلفه العمالقة الراحلون أمثال شوقى وصلاح عبد الصبور والحكيم وإدريس وحقى ونعمان عاشور وطه حسين والعقاد وشكرى عياد ومندور وزكى نجيب محمود .. إلخ ، فضلا عن انتاج أعمال إبداعية فنية وفكرية - كبيرة ومحورية ، كالتى شغلت الرأى العام الثقافى (بل والشعبى فى أحايين كثيرة) " كعودة الروح " و" الثلاثية " و"قنديل أم هاشم " و" الحرام " .. و" فى الشعر الجاهلى" و" العبقريات " و" مقدمة فى فقه اللغة العربية" و" النقد المنهجى عند العرب ".. الخ الخ.

لقد أدى هذا الفراغ إلى فقدان الثقافة المصرية لدورها الريادى فى العالم العربى ، فتراجع هذا الدور لصالح مراكز ثقافية أخرى بديلة نشأت لملء هذا الفراغ - سواء فى المغرب أو المشرق - ورغم أن هذه المراكز لم تستطع تعويض الدور المصرى ، إلا أنها استأثرت دونه بالاهتمام ، حتى أضحت تمثل المنفذ الضرورى المتاح للمعرفة العصرية (خاصة فى مجالى النقد والدراسات الفكرية) بالنسبة لشباب المثقفين والباحثين من المصريين !!!

ويمكن ملاحظة أن الأزمة - وإن طالت كافة مناحى الحياة الثقافية فى مصر - إلا أنها قد تركزت فى مجالى النقد الأدبى والفكر النظرى ، وبقدر أقل فى مجال الإبداع الأدبى (وحتى هذا القدر كان المسئول الأول عنه بالدرجة الأولى تخلف النقد والفكر النظرى) . بل إن الإبداع - وبخاصة الروائى منه – يكاد يحقق طفرة كبيرة (رغم أنها كمية أكثر منها كيفية) يعجز النقد عن ملاحقتها ، فضلا عن التنظير لها ، وإنتاج فكر نقدى ناتج عن خبرتها الجمالية ، دون الحاجة إلى إستنساخ باهت ومشوه ومستغلق للفكر النقدى الغربى . ولست هنا ضد الفكر النقدى من أية جنسية إلا أننى ضد عدم الندية والنزعة الاستهلاكية التى تؤدى إلى هذا الاستنساخ الباهت المشوه.

إن أزمة النقد والدراسة النظرية (وهما مرتبطتان على نحو وثيق للغاية) لتتجلى على أنصع وجه ممكن فى العجز عن المتابعة ، والتعامل الجزئى المبتسر مع المشهد الإبداعى واتجاهاته الجمالية وتحولاته الدلالية.

وقد تكون هذه الوضعية ناتجة عن أزمة اقتصادية خانقة حالت دون توافر النقاد على النقد والإخلاص له (وهو لاشك يعد عملا شاقا وغير مربح من الناحيتين المادية والأدبية) وقد تكون ناتجة عن الكسل العقلى والإحجام الفكرى الذى انتاب العقل المصرى والعربى إثر موجة التكفير الأصولية الأخيرة . إلا أنها بلا شك ناتجة أيضا (حسبما تقدم فى الفقرة السابقة) عن فردية وعشوائية الممارسة النقدية والنظرية، بما يؤدى إلى العجز الحتمى عن الملاحقة والمتابعة لهذا الكم المتعاظم من الإصدارات الإبداعية المتتابعة ، فلا يتسنى إلا التناول الانتقائى العشوائى (أو التناول لأسباب أخرى ذاتية) لأعمال قد لاتمثل أهمية خاصة فى المشهد الإبداعى - الثقافى ، بما يؤدى إلى حرمان أعمال أخرى ، ربما كانت أكثر أهمية ، من المتابعة والاهتمام . وهو مايؤدى فى النهاية إلى الخروج بنتائج واستخلاصات جزئية وتبسيطية ، وبعيدة عن حقيقة المشهد فى حركيته وتنوعه وتعقيده .(فضلا عن الأثر المدمر الذى يخلقه التجاهل على كثير من الموهوبين الحقيقيين من المبدعين والجادين)

ومن هنا تتضح أهمية إيجاد مؤسسة بحثية أو مركز للدراسات النقدية والنظرية يمكنه أن يعمل بشكل جماعى ومنهجى ومنضبط - على رصد الظاهرة الثقافية (الفنية - الأدبية والفكرية) ومتابعتها بالدرس التطبيقى والتنظير لظواهرها عبر بحوث حصرية - ببليو جرافية وبيوجرافية وأنطولوجية - قادرة على تقييم أداء هذه الظاهرة بما يمكن أن يتيح معرفة على قدر من الشمول والبانورامية كشرط جوهرى للتشخيص والتطوير والإثراء.



الأمل للطباعة والنشر   رقم الإيداع ٧٥١٢ / ٩٢   «الثمن: ٣ جنيهات»